عبد السّلام المسدّي

فتنة الكلمات



مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع - تونس

إلَى اللّغَةِ الَّتِي سَمَّيْتُهَا لُغَتِي

وكَانَتْ تَعْرِفُ أَنَّهَا لُغَتِي

وَقُلْتُ عَنْهَا إِنَّهَا لُغَتِي

وَهْيَ الَّتِي تَقُولُ الْيَوْمَ إِنَّهَا لُغَتِي

رِسَالَـــــةٌ

أيّتها اللّغةُ .

سأكونُ رفيقا بكِ لأني رفيقٌ بنفسي .

لن أُفشِـيَ من أسرارِكِ إلا جميلَ أسرارِكِ .

لن أصِفَ ازدواجَكِ بين حقيقةٍ و مجازٍ .

سأقول المجازَ.

وسأسكتُ عن الحقيقةِ .

ففي الحقيقةِ أسرارٌ .

و لن أفتحَ ديوانَ الأسرارِ .

فسرّكِ سرّي .

و أنا الـمُـصَابُ بكِ يـومَ حَـلَّ بنا وَبَاءُ الحرفِ . يومَ الْـتَــهَـمَـتْـنَا الكلماتُ .

فالحمدُ للهِ أن أنْجَـانَا ـ أنا و أنتِ ـ من الطّاعونِ .

أَيَّتُهَا الْكَلِمَاتُ

جائني هاتفٌ من أقاصي الفجر فأنْطَقَنِي بقولٍ و أوصاني أن أقْرِئَكِ إيّاه :

سأقُصّ عليكِ قصّتي بما لم تعلميه من قصّتي . و سأقصّ عليكِ فيها ما لم يَعْلمه قبلكِ عالم . وسأقْضي ستّةَ أيام أقصّ فيها عليكِ صباحَ مساءَ لا أنقطع عن القَصّ إلا ساعةَ الليل . و بعدها سيكون كلامٌ . و ستكون نشأةٌ أخرى . و سيكون ما لم يكن .

فَاتِحَةٌ

في البدءِ كان الصّمتُ . و قبل الصمتِ الخَـلاءُ . فَـلِمَ الكـــلامُ .
و كم من لفظــة قَتَلَتْ . و كم من سكتـة أنـقَـــذَتْ . و أصحاب اللسان يتكلمونَ فينـدمونَ . و أصحـابُ الْـعَيِّ يَـحْلُمُونَ بليلة القـدر عسى أن يُوهَبُـوا كلماتٍ بيّنات .

و الأزهارُ تتنـــاجى . و النّملُ يتحـــدث فيُفشي الأسرارَ . والأبْكَمُ حَاسِدٌ و محسودٌ . يَعرف أنه يحُبّ و يَـعْشَــقُ . و لا نــدري كيف يـحبّ و يَعشق . و يَعرف أننا نتكلم . و هو على يقين أنّنا لا نعـرف كيف نُحـبّ ولا كيف نَعشق .

و العُشّـاقُ درجاتٌ . و العشـــقُ مقـــاماتٌ . و الوفـــاءُ مراتبُ .
و أقربُ العاشقينَ إلى عرش السّماء مَنْ عَشقَ اللّغةَ . و أولاهم بجنّة الخلد من عَشق حتى فَنِيَ و حَلّ في اللغة حُلولا . فاتّحدتْ به . واتّحدَ بها .

إشَـــارَةٌ

أيّتها اللّغةُ . أيا فُصْحَايَ . يا شاعرتي .

عندما التقينا . و دقّتْ أجراسُ السماء . بأنك قَدَري . كان اللّحَافُ يغطّي أشعارَكِ . و البـرُقُـعُ يَسْتُـرُ وَجَنَاتك . أحْـبَبْتُـكِ كما أنتِ . ثم جئتـنـي إلى حيث أنا . وسألتني خلعَ النّقـابِ . و خلعته . فأحببتُ عُرْيَ الكلمات . و انكشـافَ الحروفِ . و فصاحـةَ الحركـاتِ . ثم غـابت الأسبابُ . و انقطع البيانُ . و سـاد الغموضُ . حتى رجعت تبحثين عن تأويلِ الكلامِ . ارتفع الحجابُ . و انكشفت الأشعـارُ . وتعرَّى الجيدُ . و بَانَ الهلالُ وضّـاحا مُـشْـرقا . و قلت . أيا نـاطقي . حلّتْ بالكلمات حساسيّةٌ فَاضَتْ بها جلـدتي . فجلَوتُ بعضَ الحروف . ووضعتُ عليها حركاتـها . دَقّ النذيـرُ في خاطـري : هل زالَ البرقعُ أم ضاقَ اللّحـافُ . نـظرتُ في عينيـك . فأحسستُ بهمسـةٍ تقـول : توارَت الحقيقـةُ . و ظهر المجازُ . فسَقط القناعُ .

حَسِبْـتُكِ لُغَتِي . لسـاني و جنانـي . فما كنتِ إلا لهجتي . و لا يعرفِ الضادَ غيري . كـلّ اللّغاتِ سَـوَاسـيَةْ .

بَيَـــانٌ

أيّتهـا اللغة : أراكِ أمـامي نصّـا . و أراكِ قصيـدة . فأتـذكّر الحسنـاءَ أتقصَّى جمالَهَا . فـأدركُهُ و أدركُها . و لا شيء يفـرّق بينها في ناظري و بين جمَالها . و أتأمّل شأنَكِ فيأخُذُني الضَّـلالُ ووجهي حائلٌ . مَنْ أنتِ وَ فيمَ جَـمَـالُك .

النّصّ تَعَاقُبٌ و استتباعٌ . تتوالى أجزاؤه كتوالي دقّات السـاعة على الجـدار . و القصيدة تَـدَرّجٌ و استكمالٌ . ينثنـي فيها الوقعُ على الوقـع كانثناء أنّـاتِ القلبِ. و يتـراوح بيـن مفاصلهـا نبضٌ كتـوالي خَفَقَـاتِ الـدَّمِ و هي تمـور بين ضـخٍّ و امتصاص .

إذا تعلّقتُ بجمال الكائنات رأيتُ فيه بعضًا من نفسي . ثم إذا تأمّلتُه رأيتُه صورةً كاملةً ممّا في نفسي . أهيـمُ بالكائن الجميل لأنني أتوسّل به إلى نفسي . فَـأهيـمُ بـه على قدرِ هيامي بنفسي .

أمّـا أنت أيّتها اللغـةُ فأجـزاؤُكِ صنيعتي . أراكِ منـّي فـأعْجَبُ ممـا صنعتُ بكِ . عَجَبي أنيّ أقتنصُ أسرارَكِ . و أنيّ بأسرارك أقتنصُ النَّاسَ . فـأجـرّهـم إلى مـملكتـكِ . فـلا أبـالي أنْ نَسُـوا أنيّ المستضيفُ لهم

عنـدك . وَأسْـعَـدُ . أنْ تـركوني وهـاموا بـك . كـذا شأني مَعَك . و على غير شأنك شأني مع الحسناء لا يُميتُ سُوَيْدَاءَ غَيْـرَتي قـاتلٌ . فهل أنت خادعتي . أم أنـا السّيّدُ . أم تُراني كَمَلك اعْتَصَمَتْ به سبيـّةٌ فَأجَـارَهَـا صُبْحـًا ولَـمْ يُمْسِ إلا و هو أسيرها .

جَـمالُنا إذا أقـر لنا الناس به . فَأسْـلَمُـوا إليه أنفسَهم . و جمال اللغة من إيمانهم أنَّ لنا عليهم سلطانا . و أن طريقنـا إليهم فيه طريقُ اللغة . بها نَنْفَـذُ إلى خَـلَجَـاتِ قلـوبهم . و بها نستـولي على مَرَاكِـنِ عقـولهم . و بها نروح عليهم و نغدو .

جمالُ الكـائنات كلّ إذا جَـزَّأتَـهُ أفسـدتَ على نفسـكَ مـا كنتَ مطمئنـا إليـه . و عكَّـرتَ صفوَ اللّـذة التي كنتَ تَرتشفُ . و جمالُ اللغـة كلّما جُسْتَ بين أجزائه ازددتَ بـالكلِ افتتانًـا . و ازددتَ للصّـورة التّامـّة إجلالا .

أيتها اللّغـةُ :

هل تَـأذَنيـنَ بإفشاءِ سرّ من أسرارك .

يوما ركّبْتُ بك قـولاً . فانساقَ لـيَ الطّيْشُ بـالألفاظ . فَلَم أدْرِ ما كنت أعْنيـه . وَأمْعَـنْتُ . فَتَزَيّـنَتْ صورةٌ . لم أفهمْ لها معنًى . رَدّدْتُ القـولَ فـاستطبتـهُ وعـاودتُ . فـانثـالَ فيضٌ من الـدّلالات . وَأشَعْتُ فَـقَبِلُـوا . و استراحـوا . ثم سَلكـوا في النّشـوة كلّ مسلكٍ . فَأغرانـي

عَبَـثُ الولــيد . فظـلّتْ معـي زمـنًا . و أردتُ تـوبةً . و استغفرتُ لديك . وَهمَـمْتُ أنْ أعْلـنُ الذّنبَ . وأنْ أصّعّـدَ على منبر الاعتراف . أطـهِرُ النفسَ من أعـلاقها . وأغْـسِلُ بالبوحِ إثمًا ظلمتُك بـه . و أنا بين عزمٍ وانثناء سمعتُكِ و سمعتُ مَن حَـوْلَـك تُـهَاتـفِـينَ ، و يهاتفون :

ليس مِن عبثٍ ما صَنعتَ . إنما العبثُ مـا ستَـصْنَـعُ . فلا تُكَـابرْ . فلقد نَطَقَتْ على لسانكَ اللغةُ . أرْسَـلَتْ إليكَ واحدًا من جنودها . وَهُمْ نَـفَرٌ من الجنِ قالـوا آمَـنّا . فماهم بمُلحِدين . فلا تَسْتَعِـذْ باللّهِ من طيفِ ألَـمَّ بكَ .

و من يومها . تَـزَيَّـنَـتْ لِـي فتنةُ الكلمات .

خِطَـــابٌ

إليكَ أيا سيّـدي أنا أتحدّثُ . إليك أزُفّ اللّفظَ عريسا مُــخَـضَّبًا .
إليكَ أنا أتــحدّثُ . حاضرًا . أتحدّثُ . غـائبًا . أتحدّثُ . الكـونُ ملءُ يَدي . أتحدّث . أوقفتُ يوما ناظري . و أمسكتُ عن الحديثِ . و أعلنتُ عن حفلتـي . و مــراسمي . أستقبـلُ النـــاسَ لـــو لائمـي . و أشعلتُ الشمـــوعَ . و أوقـدتُ العطـورَ . ورأيتُـني أتحدّثُ. إليكَ أيـا سيّـدي أنـا أتحدّثُ . حاضرا أتحدّث . غائبا أتـحدّث . أفـْتَـرشُ الـزَّرَابيَ . والموائدَ . وَأرُشّ رذَاذَ الفـوائحِ . أتحدّثُ . وأدُقّ على الجَرَسِ القويّ . مُـؤَذّ نًـا . أنَّ الضيوفَ . كـالقادمينَ . يتـزيّنُونَ . ويُفاتــحُونَ . مُهلّـلينَ . يبـاركونَ . جـاؤوا إلى حفــلـةِ الإقبـالِ . جـاؤوا و في يَـدِهمْ . كهـديَّـــة الأعـياد . فيــــضٌ مــــنَ الأزهـــارِ . و تســاءلــوا . أينَ الأنيسُ . و أينَ لحنُ غنائنـا . وتقدّمتُ الخُطَى . متهــاديًا . أتحـدّثُ . وَيَـدي تُصَافِحُ . والأذنُ تَـهْـمــسُ . و الشّفاهُ على الصّدَى . و اللّحنُ سكرانَ يُغَنّـي . وأنا الذي . إليكَ . أيـا سيّـدي . أتحدثُ . و القـادمـونَ تكاثـروا . و الشـاهـدونَ على الأرائكِ . أتحدّثُ . و طـاف بالجمعِ السكـونُ . و خرج النّـادل . فَفَكَكْتُ

من يَـدهِ الأطبـاقَ . و قلت . أنا أتقَـدَّمُ. ورأيتُني . أتحدّثُ . فــوزّعتُ العقـــودَ. و أسدلتُ الفواكِــهَ . و صِحْتُ بالـواقفينَ. دونكم أتحدّث . فتخالطوا . وتهامسوا . وقال قائلهم . هي ليلتُهُ التي . عن فجرها يتحدثُ . عن نـورهـا . يتحـدّث . هاذي ليلتُـهُ التي . نحنُ الشهـودُ . و عقـدهـا يتـواتَرُ. لا تَـنْـثُرُوه . وجُـمَـانُـهُ المصقـولُ. كمُـرجانِ بحـرِ. لُؤْلُـؤُهُ الـمَحَارُ. و فيضُهُ لا يَنْضُبُ . فتنـاغموا . و تهللوا . و سمعتُني أتحدث . حتى إذا طـاف بالألـقِ النّهَـى . جـاء المَلاكُ. و انتشر البيـاض . و سَطع النور . ووجدتُني أتحدث . وامتدّت الأيدي . وتهاطلت الأكُفّ . وقلتُ . أنا أتحدّث . إليـكَ أيا سيّدي أنـا أتحـدّث . وأسلمت النّفـوسُ رحيقَهـا . و طـافَ بـالكـون الخلـودُ . وتشقّقتْ فـوقي السّماءُ. و اصّعّــدَتْ نحـو المعارج . في ليلتي أتحـدث ووجدتـُني . كَمَنْ هَـفَا . وَلطَيْـفه . يتحدّث . ووجــدتُنــي . بيــن الخــلائلِ . أسْــترَقُ الوَفَــاءْ . وأنْــسَلّ . و القلبُ واجــف ووجدتُني . أتذكّــرُ. طولَ الخُطَى . عَـرْضَ الفُؤَاد . إليكَ . أيـا سيّدي . أتحدّثُ.

صَـــوْتٌ

هل تَـذْكُـرُ يا هـذا. مـا أنتَ إلا يتيمُ العقل . شقيّ بحسّــه. هَــلاَّ ذَكَـرْتَ يـومَ كـان أوّلُ مواعيـدِ الأنسِ .سـاعـةَ طَـفَحَ البريقُ في هـدوء السّاكنينَ. فقالت. ألاَ تـرَانَا قـد سَـوّيْـنَـا لأنفسنا صـُوَرًا تُفـارق الحـسّ و تتوسّـلُ بالسماءِ. ألا تَذكر كيف اعتَصَـرَكـلامُها في نفسـكَ رحيقـــا. و انقبض قلبُك انقباضةً. ولم تُـخْفِ عليها شيئا .قلتَ. الومضةُ حارقةٌ. والحسُّ شفّافٌ. و النّباهـةُ من الشّيطانِ. فكيف جاءتـكِ و لم تجئني . أمِ اسْترقتِ سمعا. و قبضتِ قبضةً مِنْ أثَـرٍ.

ومازال الكـلامُ بكَ. و مازلتَ بـه. ولم ينفكَّ الشك يرتـادُك .حتى كـانَ الذي كـانَ. في آخرمـاكانَ. فأيقنتَ أنها قـد سُوّيَتْ روحـا من غير أرواح الكائنينَ.

أيتها اللّغـةُ . منكِ الشّعـرُ . وأنـا صائـغُـكِ.

فَـلْنكْـتُبْ.

أيّتهـا اللّغـــةُ. لا أقْـــدرُ أنْ أراكِ على غيرِ مـا كنتُ أراكِ عليـه. لا أقدرُ. لاأقدرُ.

و من أقاصي المفازات. حيث أذنَ للّغة أن تَتَخَلَّقَ في تجاعيد التّربة الصّفراء جاءني رسولُها. فَتَمَثَّلَ لي جِنّيّةً تقول الشعرَ. و تُلْهمني أن أقولَ الشعرَ. فتقاضينا. وتلونا تسابيحَ اللفظ. ولم تنفكّ تُراوِدُني على قوله. و أنا كَالْحَرُونِ. وكان الإذعانُ أشقّ عليَّ من قَلْعِ الأضراس الحيّة. حتّى ارتاض بيَ الألمُ. فَنِمْتُ.

ثم تمايلتُ ثَمِلاً على السرّير. و الفضاءُ من حولي فسيحٌ بظُلمة أحبّها. تمايلتُ. وألْقَيْتُ بذراعي. وكانت مسافةٌ تَفْصِلُني. فَمَدَّدْتُ. و تحسّستُ. و استنشقتُ أعلىَ الكَتف. و كان بلا غطاء فغطّيتُهُ. و قفلتُ نائما. وَدَبَّ نداءٌ. فكتمتُ صوتَهُ. وتسلّلتُ إلى فضاء الظلمة. تاركًا ما تركتُ. الرُّبى منتفضةٌ. و اللّون ساطعٌ. السَّنَمُ على الرّبى يتشامخ زهوا بحمرة تكاد تتكلّم. رمالٌ ذهبيّة تتجاعد. ولاتَقَرُّ على موج. مَدُّهَا إلى الهضاب. و ارتدادُها إلى النهر يفورُ. و بينهما رحلةٌ تَشُدُّ الأنفاسَ. كأنفاسِ غَوَّاصٍ إلى أعماق اللآلىء إذا أطال الصبّرَ تَنَامَى مَحَارُهُ. و اشتدّتْ دانتُه. و قالت. دُونِي مَشارفُ الغَرَق.

و تحرّكَ النائمُ. حَالمًا. انفضّتْ سدائلُهُ. يحُرّكُ الخمائلَ منْ عَلَى الأكتاف. و الجيدُ كأنه يَقْفزُ. مُلاَعبًا مَنْ يَرْقُبُ. و تَسَلَّلَتْ أصابعُهُ و هي نائمةٌ إلى مَفْرَقِ الجبينِ. وسَرَّحَت الأشعارَ. ثم قَذَفَتْ بها

على البساط. و ابتسمتْ. فأيقظَها ابتسامُها. يقظةً استدارت بها الكتفُ. و ارتختْ الأطرافُ. كأنها الشمس بازغة. والجسدُ الجنّيُّ كالعاري. يَستقي شعاعَها على رملٍ فضّيٍّ. ثم اعتدلت الهضابُ. و أومأتْ تلالُها. و انفسح الموجُ. و اقتربت المسافاتُ. و استوت الأطرافُ ذاتَ اليمينِ تتكاسل في رفقٍ يتأذّى به فاقد الصّبرِ. وغمَزت الجنّيّة وكأنها اللغةُ. ومدّتْ. فظننتُها قادمةً. فعرّجتُ على الجانب الأيمن. فحاضنتُها. ومَدَدْتُ إطلالةً. و قاربتْ أنفاسي ساطع الأنوارِ. فشممتُ وَهَجًا خِلْتُهُ الكبريتَ يَصّاعَدُ مدفوعا بِشَذاَ الإصباحِ.

عُدْتُ أرَافِقُ. فانتدى مَا اشْتَدَّ. وَلان اللحظُ حتى رَقَّ فارتخى الزّهو. وهَتف المَيْلُ. و خلْتُ أني أقول الشعرَ. وراحت أصابعي تَرْسُمُ الحروفَ. تُمرّرُ الأناملَ على ما انكشف من الكلمات. فكأنها بكل لمسةٍ تتفوَّهُ. و بكلّ رعشةٍ تَنْبُسُ بأوتارِ صوتٍ بليغٍ يُفْصِح بلا مجازٍ.

وزاغت اللغة. وأنْشَدَ النّهرُ خريرَ الألحانِ. تسمع الصوتَ ولا تراها.

و تَمايلَ القدُّ على البساط تقول إنه يَمشي الخُطَى و لا يتحرك.

و ظنـنتُ أنّ ما باللغة بي .

فـأضرمتُ الهشيمَ . وفـاح لَـهِـيـبُهُ .

وقلتُ . صَـنَعْـتُـهَا .

فانْـتَــفَضَتِ الكلماتُ . وَارْتَدَتْ . و خرجتْ هاربــةً . ثـم انفلتَـتْ

كأنّـهــا السّهــمُ و هي تقــول إنـي أثْـأرُ .

فلـم أجِبْ .

و لكنـي أفَـقْتُ .

فلـم أجِـدْ شِعْـرًا .

نَغَمٌ

أيتها الفصحى .

مَن شَقَّ هضابَك . و تسلّق جبالَك .

من ألان صخرَك . وثَقَّفَ أشجارَك .

من فَجَّرَ عيونَك . وَأسَالَ أنهارَك . وسَوَّى بهجتَك .

من أغراكِ بنفسِك فأخذكِ التَّيْهُ حتى عُدْتِ إليه تشتكين لَحنَ العابثينَ .

قالت :

ليس في الكون مخلوقٌ إذا ادّخرتَهُ ذَوَى . و إذا أخذتَ منه زكَا . و إذا مَضَى عليه الحدَثَان نَمَا . و إذا أفْنَيْتَهُ انْبَعَثَ .

إلاَّ أنَا .

أنَا اللّغة .

قال . فلن تَخْرُجي و إن قَضَيْتِ عمرًا وعمرًا عن فَلَكِي . يا مَنْ دخلتِ حرّةً إلى فَلَكِي . طائعةً سائغةً لن تَخرُجي .

قالت :

إليكَ أسْلَمْتُ نَفْسي . يامن أخْصَبْتَني بأجِنَّةِ المعاني . يا مَن

حَـمَّـلْـتَـنَي من الـدّلالاتِ مـا لـم أحْـمِـلْ .

أيتهـا الـضَّـــادُ.

بضفائرِ حـرفك تُكَابـرينَ . و بنثائر لفظـك تَـتأبَّـهينَ . أخـال أنني أصنعُك . فَـتَــلُقّينَ حَرُونًا . و على شفـاهك ابتسامةٌ من بَــنَات حَـوّاءَ . أخذتـها تُـحَاكينَ بها الآدميّينَ . وأنت الـرُّوحُ لم تَرْكَبي جَسَدًا . تـغْوِينَنَـي فَأمْـسكُ بكِ . أعْـرُكُ عَجِينَتَك . حَتَّـى تَلين . أريـدُ الأناملَ أن تَـمُـرُّ مَـرًّا خفيفًـا . فإذا هي تَـجُـوسُ غائرةً مـن لـين صَـلْصَالـك .

أصْنَعُ الْـمَعْنَى . وأرْسـلُ به . و كُلِّي خُيَلاَءُ بما صَـنَـعْتُ فيرتَـدُّ إليَّ . و قد ابتسم له المتلقّفـونَ . وَغَمَزُوا بي . و تهامسوا : لم يَدْرِ أنّـه المصنوعُ . وأنّ المعنى صانعُـهُ . فأكتوي بمكرهم . وأتأوّهُ بحالي مَعَك .

والـذينَ أعجزْتـهمْ . وَعقَلْت لسانَهم . كَـبَعيرٍ ثَــنَـوْا ذراعَـــهُ . و كفارسِ النّـومِ يرومُ ركضًا . هـاهم تَشَـرَّدُوا عنكِ . فالتفُّـوا يراودونني عليكِ .

هاهم يقولونَ .

مفـتونٌ بضَـاده . فَـاتِـنٌ .

هـاهم يُـنْـشـدُونَ .

أيتها الضَّــادُ .

الـروحُ أنتِ و أنتِ الروحُ فاستمعِي .

الرّوح أنت و أنت الروح فانهملي .

هوِنّـي على سـائلكِ . وألهـميـه ظنًّـا يَشُـدُّ به أوْدَتَـهُ . وَسرّحـي له الشّكائمَ. و اتـركيه على بعضِ وَهْـمه. أنَّـهُ يَصنع فيك صُنْعًـا. و يُـركّبُ بكِ أصبَاغًا. ثم يسوِّي بِـك تمـثـالا.

فإذا انتهى إلى الميعاد . ففاتـحيـه بلطـفٍ . وَصَوِّري له مرآةَ الظّلِّ. و لا تخافي عليه. فبعضُ الجمـالِ أقسى من بعضٍ .

لن يَـقْـذفَك برصف . و لن ينـالك منه سـوءٌ. فالكـائنُ الْـجَسَدُ أعْجَزُ من أن يُـلَوّثَ بنُـفَاثَتِـه شُهْدًا مُصَفّى. فيه سحـرٌ. و فيه الحِجَى. فيه الـوَجَعُ. وفيه الشّـفَاءْ.

عَـلامَـــةٌ

أيتها العربيّــةُ .

لأنْت لـذّةٌ تُغْــري . لَلشّعْـرُ حرّيـةٌ لا تُبَـالـي . و العــزّةُ مُـدْيَــةٌ تَستأصلُ الأورامَ . أقــولُ فـــأرتوي . وأصْمُتُ فتختال نفســـي . يَرَى الجائعُ شهيَّ الـمطَاهي . فَـيُمْسكُ . و تَـمْتَدُّ الكــأسُ الــزُّلالُ للظّـمْـآنِ و هو يتلوّى كَالْـمَجْمُورِ . فَيَـلْعَقُ الرّيــقَ مُتَبَلّـلاباللّطفِ .

ويتصَلّبُ التَّـوْقُ . مُـخَـاتلاً . ثم يَـغْـضَـبُ . كالحليمِ الذي أفقـدوهُ الصبرَ فلم يَـبـْغِ احتســابًا . و كعــاشقٍ تعلّقــوا بـه . فألآنَ عـــنــانَ النّـفـس . وأهْـدَى شكـائـمَـهَا . ثم فعـل الــدَّهْـرُ فـعلَـهُ . فأنْســاهم شأنَـهُ و ما فَـعَلَ فَأقْـسَـمَ متوعّدًا . ولم يَــدْرِ أنه يكرّرُ السخـاءَ .

أنا الكـــلامُ .

أنا اللســانُ .

فـوقَ كلِّ هَـوًى كبريائي .

فـوقَ كلِّ الناطقينَ شُمُوخِـي .

خُلقْتُ أنــُوفًـا .

سَـأبـْـقَى .

لاَ أطْرُقُ الألفــاظَ مستنجـداً .

لاَ ألْـثـمُ الأرضَ باكيا عـزَّ الحبيبِ .

أدوسُ على الحسِّ الهفـيف .

أقْبضُ الأنفاسَ لقلبٍ وَالـــه .

و أقول في صمتٍ و في وَجَـــعٍ .

لا خيرَ في شعرٍ سقـاني الْـجوَى .

وَ أضْعف نفسـي فَـأذَلَّـني .

لا خيرَ في لفظٍ يُـجَرِّدُنـي شموخي و كبريائي .

تَـصْـغُرُ الدنيا و تعلو لغتي .

ينحني الشعرُ و تَـشْـمُخُ عزّتي .

لاشعرَ عندي إلا متى يسابقني اللفظُ في طاعتي .

وجاءت اللغـةُ . تمــشي الـــهُوَيْنَـا . بألـــفاظها . بكلِّ الكلمـات . جــــاءت . وفي عزِّ كـبْـرِهَا . و جبـالُ التّيـه شاهــقةٌ . وهي نافــرةٌ . سكْرَى . مكابـرةٌ . أقسمتُ عليهـا . وَأضْمَرْتُ يميني . لَـتَـعْرفينَ مَعي . كَـرَّةً أخـرى . حرْقَـةَ الشّعـرِ و أوجاعَ الكـلامِ . وَلَـتَلْثمــينَ مدَادَ اللفظ ساجيَـةً . وَلَـتَطْلُبينَ رحمةَ الأرض و هـي ظامئةٌ . وَلَـــتَـهْمِــسينَ . بكلِّ

الجوارحِ. قائلةً. لاهثـةً. اسقِـنِي بربِّ الكون. واغفـر زلّتي في الشعرِ. ما كان حقّي أن آتيـهَ. ما كان حقي أن أجُـورَ.

كُـلُّ مَا تَـأْتـيه مُـطَاعٌ. مقـدَّسٌ. أَقَبِّـلُ الأطـرافَ. و أنحنــي. و أقول في غير تَـمَنُّـعٍ. ماشئتَ. روحي إليكَ. و هبتُـها يَـا آسِـري.

أيتهـا اللّغـةُ.

أرا كِ تراودينني. وأمرُكِ نافـذٌ.

بنفسِك لن تُـغْرِيـنِـي.

لن أقول بكِ شعراً.

لن أمَـكّـنَـكِ من نفسي.

تَـمَـرَّدِي ما شاءَ لَـكِ ألإبـَـاءُ.

راوغيني كيفما بَـدَا.

ثم عُـودي فـأسْلِـمِي.

فأنتِ صنيعتـي.

نَـــصٌّ

زارني يومـا شيطـانُ الشعر . وحادثني . ثم رَوَى عني مفتريا . قال .

صــادفني على غير ارتقـابِ رســولٌ . دَفَعَتْ بــه حـرّةٌ . كــانت تقول . كلّ الرجال قَـفْرٌ . و بعضهم قَـفْرٌ و جَـدْبٌ .

فَأسَـرَّ لـي بها أسَـرَّ . وانتَـظَـرَ . فقلتُ له . حبٌّ الكلامِ من الهوى . و الهوى يـُورِّثُ الغوايــةَ . قال . ومـا حبٌّ الكلام . قلتُ . إذا تَـحـدثْتَ و الناس حولَـكَ . بعضُهم يَسمعُ . و الآخركأنما يَسمعُ . و قليلٌ منهم مَنْ يُصْغِي إليكَ . قــال . أفليس حبّ الكـلام من حبّ العبــادِ . قلتُ . من أحَبَّ الكلام أحَبَّ نفسَـه . و من أحبّ الناس أصغى إليهم .

قال . و هل تتبـدلّ الأحوالُ .

قلتُ . إي وربيّ . إذا خــاطبتَ أنيسَك وبينـك و بينـه المســافــاتُ . فــالكـلامُ إليـه أرواحٌ مجسَّـدةٌ . و الألفـاظُ على الشّفـاه و على الخطـوط كائناتٌ تتنفّسُ . و تَرتدي الأثوابَ . و تــَرُدُّ عليكَ الصّدى . تقولُـهــا . و تَـلْمسُها . ثم تراودُها . فتضمـُّـها . فتُـعانـقُكَ . ثم يَـلَذُّ لـك إثارتهُـا . فتثورُ . و تُـمسِكُ بكَ . فتحتضنُها . و تفارِقُ بها الأرضَ . و ترفعها بيديك

إلى فضاء السماء . ثم تستقبلها . و قد ضَحكَتْ إليكَ. فَتَضغَطُ بصدرك ضغطةً تُطْلِق أزَّةً و لا تُفصِح بالأنين. حتّى تَصِيحَ حروفُها فَرَحًا . وهي تتألم . ومازلتَ بالكلماتِ. و هي بك. حتى تَحْسَبَ أنها غيرُ الكلماتِ قد حضر إليك . كما تحضر الأرواحُ. فلا تُسَلِّمُ جفونَك إلى مَنَامِ الليلِ إلا وهي في أحضانك .

قال .

فسمعتُ الحرّةَ بعدها تُرَدّدُ. و تقول . كلّ الرجال كأشباهِ الرّجالِ. إلاّ واحدًا. ولم تزد شيئا.

ثم هَجَرَتْ قومَها. و صَبرتْ على الأذى . فطلبوها. فأرسلتْ إليهم :

إذا طرأ الطارىءُ. و ارتجّتْ القواعدُ. فاندكّتْ أبوابُ النفس. و إذا ماجتْ الأركانُ. و تداعتْ الجوانحُ. فَتَهَايَسَتْ أعمدة اليقين. و إذا تكاثفت سحب الشك. و تلبّدت الغيومُ. فدوّت الأعاصيرُ. حتّى لكأنّ الدنيا غيرُ الدنيا. و إذا النفس أنكرتْ نَفْسَهَا . و الجُحُودُ على الأبواب. و المِقْصَلُ يهوي على ما مضى قَطْعًا وَبَتْرًا. والتاريخ سَلَّةٌ كبرى . واليد كالأظافر. تَسْتَلُّ و تَنْهَشُ. تَحفرُ في الذاتِ. و تغوص على الأغوار فَتُخْرِجُ ما تُخرِجُ. و تُلقِي ما تلقي. و تُعاد السّاعةُ على أوّلها. يومَها قولي . أنا الفاعلةُ . يومها قولي . أنا الساعة. يومها قولي .

إني به . يومها شُدِّي على المِعْصَمِ . و على المسابح . و اعْقِدي ألفًا

و ألفا . قَطَرَاتٍ من الوجد . كحبّاتٍ من اللطف . يومها قولي . ثم

قولي . إنــي أنــا .

تَرْخِيـــمٌ

قال ابن الحسن .

«يا عبدُ : الحروفُ كلُّها مَرْضَى إلاَّ الألفَ . أما تَرَى : كلُّ حرفٍ مائلٌ . أمـا تَـرى الألفَ قائمًـا غيرَ مائلٍ . إنما المرضُ الميلُ . و إنما الميلُ للسِّقَامِ فَلاَ تَمِلْ . »

قالت الفصحى .

في الدلالةُ أسبحُ . وبالإيحاء أفْتتنُ . و عروسُ اللفظ شاعرة . جاءت من الصحراء . جاءت و في يدها . قنديلٌ من الأصوات . بَحرِيَّةً . جَبليَّةً . أفرغتُ شِبَاكَهَا . و اصْطَفَيْتُ فصوصَها . و التذَذْتُ بصفوها . و سَبَحْتُ في الموج . غائصا . و جريتُ في الصحراء معانقا . لثمتُ شفاهَ الرملِ حتى أذَابَنِي . حُلْوَ المَذَاقِ . عَارِيَ الزَّبَدِ . وأسْدَلْتُ مائلَ الشعرِ . و قلتُ للتي سَبَحَتْ . فوقَ اللُّجَيْنِ . إلى الماءِ . فعنده خَبرَي . ألوذُ و أطفو . كقائلِ الشعرِ . في غَزَلٍ . و الأنفاسُ شاديةٌ . أبحرتُ . إلى الأعماقِ . أهفو . كَرَطْبِ النسيمِ . غاديا في الجوّ . خَفَّتْ مُهْجتي . فالمياهُ قصائدي . و الرمالُ . و الأمواجُ . كَنَسيمِ لفظٍ . ساحرٍ . و الشواطئُ .

كلُّـها . تجـري . راياتُـها الشعرُ . و ألحـانُـــها نَـغَمٌ . و رحيـقُ صـَفْـوِي .

و الزّمنُ . يالفظي . و يا زمني .

رَدّ ابـن الحسن .

قال

«يـا عبـدُ لا إِذْ نَ لَـــكَ ثـمّ لا إذنَ لَـكَ ثم سبعـــونَ مرّةً لا إِذنَ لَـكَ أنْ تَصِفَ كيف تـراني، و لا كيف تدخلُ إلى خـزانتي و لا كيف تأخذ منهـا خواتمي بقدرتي و لا كيف تقتبس من الحروف حرفا بعزّة جبروتي » .

قال الراوي .

هو ذا الخاطرُ . مِن أعالي البرُجِ . و الكونُ أخضرُ . والأشعّةُ بازغةٌ . و الخالدُ . تَـجرِي مياهُهُ . و الصَّحْنُ يدورُ . و قلب البرجِ ثابتٌ يرسـو . و نحن طَوَافٌ . و كـذا الدنيا . بنا . تمورُ . و الخاطـر سائحٌ . واختصرْنَـا الزَّمَنْ . مِـنْ عَلَىَ البرح . و قلنا قصّةَ الألَـمْ . وَحكَـتْـنَا أساريـرُ البِـلَىَ . وَصَفَا الخِـلُّ . وَسِيقَ الدّهرُ مِنْ جِيدِهِ . و قيل للكون . حَـلِّقْ بنا . وكَانَ الذي . قدأفصـــح بإعجازه . وجِـهٌ . كالصامتِ . ولَـحْـظٌ . كالتّائِـهِ . وبريـقٌ . خُـذُوا الدنيا و هـاتـوهُ لِـي .

أجـاب :

« وقـال لي تَعـرفُ الأسماءَ و أنتَ في بَـــشَـــرِيَّــتِــكَ . يأكل الخَـــبَلُ عَقْـلَـكَ . وقـال لي لِـيَحْذَرْ مَنْ عَرَفَ أسمائي من خَبَـلِ عَــقْلِهِ ثم ليحذرْ

مَنْ عَرَفَ أسمائي من خَبَلِ قلبه ».

قالت:

عيدٌ من الأعياد جاء مُصَافحًا. فالمواليدُ شَتَّى. و الأعيادُ بلا حساب. وعيد اللفظ هو العيدُ. وهو بمفرده عيد الأعياد. مَوْلِدُهُ الذّكرى. و الأعمارُ خالدةٌ. أنا اللغةُ. أوقفتُ عَدَّادَ الزمن. أوقفتُ عقاربي. كُبْرَى و صُغْرى. أوقفتُها. عطّلتُها. ساعة الزمن. على الجدران. وفي المعاصم. و على التّلاَل. كلُّها. ساعةُ الزّمن. ساعةُ التاريخِ. تجمّدتْ. في شرايينها. دماءُ الزّمنِ. أهدرتُها. قلتُ للأيامِ. كما قلتُ للأعمارِ. هُبُّوا. و تجمَّعوا. هو البدءُ و المنتهى. و برازيخُ النُّهَى. و اليومَ. أيا لغتي. أيا ضادي و جناني. أُهديك ما أُهديك. أهديك خَاتَماً. بالألْمَاسِ مُشْرقَةً. وَضَّاءَةً. تُحَوِّلُ الأبصارَ عن وجنتيك. فأنا أغار على وجنيتك. وأنا أخاف الناظرينَ. الفاتحينَ أفواهَ العيونِ. و السابحينَ. كالغرقَى. في لُجِّ الجمالِ. جمالكِ القهّار وقد رَوَّضَنِي. حتى غزاني. فأحببتُه. و استطبتُ هزيمتي. اليومَ أهديك قلائدي. أهديك. أسواري و مسالكي. أهديك خريطةً. مرسومةً. تَسيحينَ بها في الأزقَّة. في الأدغال. وفي الزوايا و مكامني. تتجوّلين و المعطفُ في اليَد. و الشتاءُ بعزّه. تتجوّلين. و الشمسُ بازغةٌ. و الغمامُ مظلّلٌ. في القيظِ. وفي العواصفِ. في الحرِّ و في الشتاءِ. و في

كل زمنٍ . أهديكِ خريطتي . و مَرَاكبي . تَطُـوفينَ . في بحر الهوى . وفي العـالم المسحـور . وبين شوارعـي . اليومَ أهـديكِ أغنــيَّةً بلحنٍ خالــدٍ . بِـوَهَجِ الشوق . بِكبريتِ الـوَجْدِ . أوقِـدُ الشموعَ .

أهــديكِ .

ما أهـديـكِ

أهــديكِ اعترافي .

قال .

« ياعبــدُ

الحرفُ نَـارِي .

الحرفُ قَـدَرِي .

الحرفُ حـتـمِي مِـن أمْـرِي .

الحرفُ خـزانـة سِـرّي .

يا عـبـدُ .

لا تَـدْخُلْ إلى الحرفِ إلا .

و نظـري في قلبكَ .

ونوري على وجهكَ .

و اسمي .

الذي .

ينفسح له قلبُـكَ .

على لسانـكَ (. . .)

فإذا أرسلـتُـكَ إلى الحروفِ .

فـلْـتـقـتـبِسْ .

حرفـًا من حرفٍ .

كما تَـقْـتَـبِـسُ .

نارًا من نارٍ .

أقــولُ لَـكَ .

أخرِجْ أَلِـفًا من باءٍ .

أخرجْ باءً من بـاءٍ .

أخرِجِ أَلِـفًـا مِن أَلِـفٍ . »

قال .

إني زائـرٌ و أهْوَى . سـائحٌ و الوجدُ معي . راحِلٌ وَ حَــقِـيـبَتِي .
شوقٌ وحبٌّ و أحلامْ . شاعـرٌ . وأنـثُـرُ الدرَّ على الكلماتْ .

أيتها الكلماتْ .

أيتها الكلماتْ .

هل تسمعـينْ .

هل تسمعيـنْ .

أنا ما تعلّمتُ أنصافَ الحلولِ . خُذيهَا أوْدَعيهَا . لا شيء بعد اليومِ أنْكِرُهُ . ولاأبِيٌّ على الأشجانِ يَنْكسِرُ . أنتِ اللغة . أنتِ اللغة .

قال .

« يا عبد .

ما قلتُ لَكَ ذَلِكَ .

حتى هَدَيْتُكَ لِذَلِكَ .

فرأيتَ ذَلِكَ .

رآهُ قلبُك .

وعرفتَ ذَلِكَ .

عَرَفَهُ قلبُك .

يا عبدُ .

ما لأفكارِكَ .

تنعطف على أفكارِكَ .

وما لِهمومِكَ .

تَبِيتُ وتُصبحُ .

في همومِكَ » .

سَمِيَّةٌ

يُـحكَى أنّ امـرأةً من ذوات الأسرارِ كـانت فيما مضى لها من أيّـام العمر إذا تحدّث النـاسُ عَنِ الصَّـبَابَةِ تَأَوَّهتْ. و إذا تحدثـوا لها عن الجمالِ تنكّـرتْ. و إذا جـاء ذِكْـرُ الـرِّجـال التفّت على نفسهـا . و انقبض منهـا الجسد. وامتدّت الخلجات . و ابتسمت . كـأنما تريد ضَحِكًا يُلقِي بها على مَدَد. و كانت تخلو كلَّ ليلة فـلا تنفكُّ هائمةً حتى يَـحضر لها من عالَـمٍ لا تعرفُ مَوْرِدَه رسولٌ يتمثّل إليها بهيئةِ نـافثِ الشّعرِ. فتخاله ملاكا مُلهماً. و كانت تَـرْفُلُ بـه. فيقول . حدّثيني بالذي تَـجِـدينَ. و ماهي إلا رهبةٌ حتى تَـقُـصَّ عليه قصتَّـهَا مع الأحشاد. ثم تَـلْعنهم. فينصرف.

و في ليلةٍ دَعَـتْـهُ فَـأبَـى. فَسكَنَـتْ إلى عزلتها. وقالت. هذا نذيرٌ. ولـمْ تكترثْ.

فلقد نال الزمانُ من عزمها حتى ارتاضت جَـلَـدًا .

فاستلقَتْ. وأغْمضتْ. ولم تكن من حولها الأنوارُ. وقالت. ما بالُ النـاس واهمينَ. ما من أحـد يروح و يجيءإلا و أنـا عنده من أسعـد خلق الله. يـراني على خُلُقٍ يَفعل في النفـوس فعلَ الآخذيـن. ويَشهد مـا يعتري

الوجنةَ مِنّي . فيُشْفِقُ إشفاقا يَعِزُّ عليه . و يراني على يقظةٍ ليست كيقظةِ حَوّاءَ . حتى إذا ضاق أمري أبديتُ انشراحا . و ما هو بالانشراح . وإذا اغترَّ الناس بي أفَضْتُ عليهم من رحمتي . و النار تلتهب في جوانحي . أكتم الغيظَ . وأقولُ . قَدَري .

و مرّت الأيّامُ .

وازدادتْ الأيّامُ .

و أبرمتُ في دُنْيَايَ عَقْدًا قلتُ لا ينصرمُ .

هي ذا الحياةُ .

أنِسْتُ بِشرِّهَا .

حتى قلتُ هي لي . وهو منها .

أقْبَلُهَا كارهةً .

و أطَهِّرُ ما تَجِيئني به .

أغْسِلُ الأدرانَ .

وأصْمُتُ .

وارتضتُ بها أنا عليه . وارتاض بي . و أنساني اليأ سُ كلَّ أدعيتي . فلم يَبْقَ لي منها إلاّ دعاءٌ كنتُ أردّده كلما حَلَلْتُ بين السّواد يَغْدُونَ و يَرُوحُونَ . فأقول . اللّهمَّ إن الصّمتَ عبادةٌ . اللّهمَّ إنّ الصّمتَ عبادةٌ . و كنتُ أحرِّكُ به لساني . و لا يُسْمَعُ لي منه صَدًى . حتى كَشَفَتْ أمْرِي

كاهنةٌ . فَلاَ بَسَتْني . وَ قَرَأَتْ تَمَائمَهاَ . تُميط اللّثامَ . و أنا في عزلتي . كأ نَّ بيني و بينهـا الأمَدَيْنِ . و كنتُ أقولُ . إنْ هي إلاّ واحدةٌ من السواد .

فَحَمْلَقَتْ و زمجرتْ و اعترى و جههَا الغَضَبُ و انبثق من مقلتيها شَرَرٌ كاللّهَبِ . و قَبَضَتْ على مَرْفِقي قبضةً أوجَعَتني . وما حَلَّ بالنفسِ أعظمُ . فرجعتُ نفسي إليها و كأنها من الأدغال . و سافرتْ بي فقطعتْ بَرًّا في رَحِمِ الأمزاج . ولما رأت في عَيْني بريقا اطمأنَّتْ و ضَمَّتْني إليها . ثم أمسكتْ مني الكتفين و تنحّتْ بوجهها عن وجهي و أسدلتْ ثوبي و ثوبها و طأطأتْ بالرأس و انتظرتْ حتى فعلتْ فعلها فقالت في صوتٍ حنينٍ كأنه آهةُ الوضعِ تتلو أنّةَ الأوجاعِ والأمُّ يَقْظَى و الوليدُ على الفراش : سيأتي من يُبَدّلُ حَالَك و لا تَشْعُرينَ .

و مضتْ و تركت في نفسي ما إنْ سألتُها عنه حارتْ جوابًا .

ونَسيتُ أمرَها .

ولا أذكر لها إسما .

ودارت الأفلاك . ولا يمزّقني الآنَ أمرٌ كما تمزّقني غفلتي عنها . تتآكلني الحسرةُ أنْ فرّطتُ في حبل الأسباب لها . وَعَليَّ ملءُ الأرض لو أنّ بصيرًا أرْشَدَني اليومَ إليها فأضُمَّهَا وأقَبّلَ منها الجبينَ .

مِـــدَادٌ

مِن النـاس مَنْ يُـفْـتَنُ في مَالـه . و منهم من يفتن في إيمانـه . وقـد يُمتحن المرءُ في بَدَنـه . وقد يُبْتَلَـى في عقله . ولقد فُتنْتُ في كلمـاتـي .
و الفتنة دخولٌ إلى النار تَصْـهَـرُ الذَّرَّات و تَصْقُـلُ فتخَـلِّصُ من الأدران .
و العشقُ فـتـنةٌ للمرء فإذا المـرءُ في عِشْـقِـه فـإمَّا إلى انتحارِ الذات بحُبِّـهَـا و إما إلى خلاصها به إلى الأبَـد .
فَـأنعـمْ بها من فـتـنةٍ إن كان الخلاصُ مـآلَـهَا .
قالت الكلماتُ :
تـاللَّهِ إنكَ لمحبٌ لِـنَفْسكَ . مُغْرمٌ بها . مفتـــونٌ فيهـا . متهافت على ما يُـرضيها .
قال :
إِي وربِّ السّماءِ .
قالت :
ألا تراكَ متعلّقا بحبِّ من أحبّكَ أكثرَ مما أنت هائمٌ بمن أحـبّك .
قال :

لستُ أدري. ولا مُنَجّمَتِي تدرِي. ولكنّ الذي أدري أني ما عرفت نفسي إلا يوم عَرَفْتُكَ. عرفتُها في سرّها وفي نجواها. عرفتها على أسْنَامِ قوّتها وفي سُفُوحِ ضَعْفِهَا. عرفتها في كبريائها و في انعطافها. وفي خُيَلاَئِها وزهوها كما في لِينِهَا و انسياب أطرافها.

رُحْمَاكَ.

رِفْقًا بالرِّضَى.

رِفْقًا بِلِينِ الحُلَمَاء.

وسأل ابنُ دُلاَمَةَ أمَّهُ عن سعير الغضب فقالت :

الغضب فتنةٌ فلا تصطنعْهُ. فإن غَلَبَ عليكَ في خيرٍ فَهُوَ خيرٌ فاستعن به على تطهير النفس من أدرانها وَ صَفَاء السريرة من غَلْوائها. و العُشّاق أشدّ الناس غضبا و أسرعهم إليه فلا يلومَنَّهم أحدٌ فيه . وإنما ترى الواحد منهم يُكَابِر فَتَعِزُّ عليه نفسُه حتى يسوء ظنّه بالعشق فلا يَعْلَمُ الناسُ إن كان عاشقا أو كان مُصَانِعًا حتى إذا غَضِبَ انكشف الغطاءُ وانجلت الحُجُبُ فَبَانَ منه ما كان مُختفيًا.

قالت دُلاَمَةُ : وهذا من أعظمِ أسرارِ الغضب و من أجَلِّ فضائله.

ثم سألتُ بركانَ الغَضَب :

مَن أشعل نيرانَكَ. من أضرم لهيبك و أطال حريقك. من يا تُرى أوْقَدَ تَنُّورَكَ و فَجَّرَ أفرانَكَ. و من الذي سَلَّطَكَ فأمسكت بي

و استعبدتَ فؤادي . ومن أوْقع بيننا فَرِكبتَني كصهوة الجيادِ .

قال :

لا تسألْ . فَحُمَمي تُخْصِبُ الأرضَ فتتدفّقُ بها حُبلىَ ولُودًا جنينُها الحبُّ يُبعث بعثا جديدا . وتُسقَى بِرُغَائِهاَ شرايين القلب فَيَنْبُضُ بما كان يَنْبُض به حتى الأزلِ .

قلت :

لَبَّيْكَ يَا غَضَبِي .

لبّيكَ يا غضبي .

حَـرْفٌ

سئل الملائك أنَّ أهل الأرض قد استحدثوا من الأنا لفظا أطلقوه على من أحبّ نفسَه وآثرها على من سواها .

قالـوا : دأبُ أهل الأرض عصيانُ خـالقهم . فقد وَضَعَ لهم الأنثى ولم يجعل لهم لفظا . ووضـع لهم اللغـةَ وجعلها أنثى .

هي تُـحِبُّ فلا حبَّ كحبّها . و هي تتهافت حتى لهي إلى الفناء عالقة بـالعَدَمِ . ثم هي تُـحِبُّ حُـبَّهَـا . كحبّهـا من أحبّهـا . تَـلُوكُ اللّفـظَ . وتَعْلِكُ الأوصافَ . وتُـحَـلّـي الـمَـرَاهِمَ . وبيدها تَـصنع الْـبَـلاَسِمَ . تُـضَمّدُ ماحَـفَـرَتْهُ علىَ الجَسَـدِ . وتُـواري مـا نَقَشَتَـهُ على الـرُّوح من الـمَغَارِزِ .

مملكـتُها مِن هـروبِ الناس عن أحـوازهم . وعـرشُها من خـوفهم المكرَ واتقائهم مذلّـة الأسْـرِ وسـوءَ الإفصاحِ . والقوّةُ لها أنْ تُـمسكَ بمن حَـوْلـها من مقابض الـوَهَـنِ ومَـرَابِضِ الأوجـاعِ .

عَـلَّمَـهُمْ بعضَ ذلك أبوهم يـوم نزل إلى الأرض ونزلت حوّاءُ فراح يبحثُ نهارا ويَسْـتَجمُّ ليـلا . وظلت سـاعيـةً بـالليل و النهـارِ حتى إذا

تصادفا على الجبل أمسكتْ حيث كانت . وجرى مهرولا . فأخبر صادقا .

وقالت : منذ السّماء لم أبرح موطئي .

وما نَسيَهُ الأبُ أكْمَلَهُ الأبناء . فتفننّوا في الطاعة ومهانة السؤال . وكلّما أمْعَنَ الواحدُ منهم ظَنّ نفسَه الفتى وهو الطفلُ لا يَبرح أعتابَ المَرَاضِع .

أفّ لرجال كأشباه الرّجال .

وَسُحْقًا للأطفال يجودونَ بغير ما يَطْلُبُ الطالبُ . وَهُمْ على الوهمِ أنْ قد جادوا بما يَطلب الطالبُ .

وتَبًّا لصبية يَبخلون بأيَسرِ ما وُهبُوا وهو الكنزُ المطلوبُ و المُبْتَغَى الموعودُ .

فكَتب كبيرُ الملائك على بعض ألواحه :

لو كانت الأنثى ذَكَرًا و الذكر هو الأنثى لاشتكتْ منه إليه أكثر مما يشتكي اليومَ منها إلينا .

خُلقَ الإنسانُ ما أكْفَرَهُ .

ليته اكتفَى بما خَلَق اللهُ ولم يَستحدثْ لفظًا .

فتنةٌ هذا من فتنة تلك .

دَلاَلَــةٌ

يالغـتي . ياشـاعرة .

سمعتُ فيما يَسمع النائمُ هـاتفا جاء يُـخْبرني أنك يـوما ضحكت . وارتفع منك الصوتُ . وأنا غائب . فلما رأيتُـك وعرفت ماجاءني أرسلت أنصافَ الجُـفون . وتوسدت ذراعي . وطلبت الأناملَ . فراحتْ تهدهدُ . ومـرت على الـوجنـة . فـاعتلتْهـا حُمرةٌ لم أر في حيـاتي لـونها . وأطبقت النـواظـرَ . وهمّتْ بفمي منك الشفـاهُ . فأبطأتُ بـك . حتى فَـزعْت . وجَلَـوْت الأبصـارَ . مُـحمَّرةً . تتبلّل . فـأرسلتُ فمي . فطلبت ظـلامَ الصّمت . فأعطيتُـك نورا . وأشفقتُ عليك .

فناديـت :

ظمأى إلى لَـفْظكَ أُنْـشدُهُ . ظمأى إلى نخلكَ أقطـفُـهُ . الحرفُ نَبضٌ و الـمـدَادُ على الصَّـدَى . و النفسُ حَـرَّى . و البـوادي . ولـواهفي . كـؤوسُ المفـازات تَـقَاطَرُ كـالنَّدَى . ولسـتُ أدري . هل في اللفظ مَـصْـرَعُنَا . أم القلوبُ على الأوتـار ترتجفُ . أم السرّايا . أم الأوجاع على الأفواه تبتسم . مَفـاتن اللفظ تهادت . ويسترقُ المنادي . ويعيـد منشدا .

إلى اللفظِ الرقيق أنـا الظمآنُ أقرأهُ إلى الحرف الجميلِ أنا الفنـان أصبغُهُ. إلى الـوجـه الصَّـبُوحِ. إلى النورِ المضيءِ. أنـا اللّهفـانُ. لهفي على الأشعـار أغْـزِلُـهَـا. وعلى الضفائر. تَـمرّ يَدي. تهدهدها. إلى سَعَفِ النخيلِ. أليـافٌ مُذهَّـبَـةٌ. خيـوطٌ تترامى. بأصبـاغ الحروفِ. إلى الكلماتِ. بمسك نَـدَاك. أملـؤُهـا. إلى خفقـات القلبِ. أسمعُهـا. إلى نَبـَضَاتِ اللَّحظ. وهـو يرتعش. إلى الوَجَفَـات. أرْقُـبُهَا. لهفي على لغتـي. حبّاً يعانق الألفـاظَ. مُذْ بَـزَغَتْ. نجمةُ الأعراب فـاتنةٌ. رَبَابُـهَا الشعرُ. وهي نائيـةٌ. فمتى الألفاظ تـزدهرُ. ومتى الأمصـارُ تقترب. وتزولُ عن لغتي الشكوكُ. وينطلق اللسـانُ مُـجَـدَّدًا. فَـتَقْـتَـرِبُ الأمصارُ. وتُلْقَى على الأبحارِ. جسـورٌ ذارعاتْ. تَـلُـفُّ الـمَخَاصِرَ. قـدودًا مائسـاتْ. ويلينُ لك الطَيفُ العنيـدُ. و الشعـرُ أكبرُ. كم في اللفظ من عَجَبٍ. ملءَ القلوبِ. كـوحدة الأوطـانِ في وطنٍ. ياوحـدتي. ياوطنًـا. يالغتي. لا الشعـرُ منك يُرضينـي. ولا الإيقاعُ بعيـدًا عنك يَـرْوينـي. ولا الكـونُ يَـصفُو إلا متـى الألفاظُ تَـتَّحدُ. وينبـثـقُ اللفظُ الكبيرُ. فمتـى الأجراحُ تندملُ. ومتى الأطيافُ ترتحـمُ. فيؤوبُ لي رُشْدي الذي. على صَفَحَاتِ اللفظِ ينتشـرُ. وبين ضفَـافِ النخلِ. يـزدهـرُ. وتـؤوبُ لي لغتي التي. كألفِ سَنَى في ربيـعِ عُـمْريَ تَـأْتَـلـقُ.

تَرْتِيلٌ

إليكَ أيا سيّدي .

إليكَ أيا ناطقي . يا متكلّمي .

أنا اللغةُ . إني أنا العذراءُ وإن صُحبَتْ . مازلتُ بجوهري المكنونِ هازئةً بالشعراء. بالحكماء. بسخائهم يُسيلُونَ من الأمهارِ أوديةً . ومن الأشعارِ أفئدةً. يَجْرُونَ . وهم لاهثونَ . وراءَ المحارِ و الأصداف . حتى إذا مافَتَحُوا. بابَ القلاعِ وابتَهجوا. بالنّصرِ. بالكسبِ . باللّذةِ العَجْلَى. عادوا إلى نَشوة اللفظ . على الأكتاف أرديةٌ . من لُجَيْنٍ ومن ذَهَبٍ. والوهمُ قَاتِلُهُمْ . فازوا بتلكُمُ الأُنثَى. وقد كَسَبُوا. كأسَ المواسمِ. والصّدورُ تُوَشّحُهَا. دوائرُ الأذهابِ. ومافَطِنُوا . وماعَرَفُوا. مفاتحُ القلبِ. في غيرِ ما قَصَدُوا. مفاتحُ القلبِ, والألبابِ. سيّدُها. أميرُ اللفظ. فارسُ الأحلامِ. صانعُ العشقِ. نَاحتُ الأمثال. إلى البيانِ. وفتنة الكلمات. كلُّ العَذَارَى. والطائرات. والفراشات. تَنجَذبُ. حتى تذوبَ. بضوء النور . بنار الوجد. وتُعْلنُهَا. وتقولها . على طول المَدَى. إليكَ يا مَلكي . إليكَ أيا سيّدي . إليكَ. أنا العذراءُ. إليكَ

دمي. فـارتشفْ على قَدَحٍ. واسقنـي من دمـي. فـلا النـارُ وأنتَ مني بحـارقـة. ولا الأنـوار في غيرِ وَجْـدكَ سـاطعـةٌ. فـالنـورُ أنتَ. و النـارُ وجدُكَ. و اللهيبُ. لهيبُ لفظكَ. وأنا فيكَ فانيةٌ. فلا تَـرْحَمْ. عليكَ بي. عليكَ بي. فذاتُ الأشجانِ تأوَّهَتْ. فَشكَتْهَا الـزَّفَرَاتُ. مُرْهَفٌ قَـلْبِـيَ و الأوجـاعُ تلتهبُ. و الصـوتُ مُنْخَنقٌ وتلكمُ الأنفاسُ. ويجثـمُ الخَوفُ. داعيًـا متبتّـلاً. ويلـوحُ في الأفُـقِ الـمَرَامُ. الأزهـار تَلْمَسُني. وأشجـارُ الـربيعِ. والصـدرُ مُتنـزَعٌ. والطّـائرُ الخفَّـاقَ. أوّاهُ يَشـدُّني. جَنـاحَـانِ في كَبـدِي. و السماءُ. و الغـربُ. و الشَّـفَقُ اللّمّاعُ. وبحـار الموجِ. وتهـاليـل الصبّـا. و الماءُ مُفتـتنٌ. وتُشرقُ الشمسُ. هـاتـوا الفَـنَاءْ. هـاتوا المغاربَ. ولْـيَسْكُتِ الصوتُ. ليمتـدَّ الـهوَى. والرَّجعُ قادمٌ. وفي الليلة الظلماء. يَصْمُدُ الثائـرُ. ويثوبُ الصابرونَ. والتائهونَ. و العـائدونَ بـرَجع الصَّـدَى. و الـمُقْسمُونَ. تـالله لراجعـونَ. وليلـةَ الـرحيلِ. دموعٌ ذارفـاتٌ. و الكُحلُ مغتسلٌ. وأوديـةُ السَّـرابِ. تَقـرأُ الكفَّ. قلـوبٌ وقلـوبْ. ستائرُ الـرّوضِ. وألـوانُ العطـورِ. أعناقُهـا الجيـدُ. والروابط تلتـوي. وتزهـو بها الأشواقُ. و الأيـادي الواثقـاتُ. تُغـازلُ الثـوبَ. والمرآةُ بـاسمـةٌ. وتَـخْجَلُ العينُ. ويمتـدّ الحديثُ. والخناجر واجفاتٌ. وفي كلّ صباحٍ. وثـاقٌ جديدٌ. وروابط الأعناق قيدٌ محبَّبٌ. وتحلو الملابسُ. و النواظرُ سائلاتْ. خفّفِ الوطءَ. أفلا تُغَنّي.

ويحتفلُ الجمعُ . وَيَطْلُعُ البَدْرُ . ويصيحُ بِالْـمَـلإِ الوَدُودُ . ما بـالنا نَـقطع الأيدي . فيوسفُ هاهنا . وزُليخاءُ اليَمَن . على العرش مالكةٌ . والصرّحُ الممرَّدُ . و المليكُ الشامخُ . لُـجَّةٌ من قـوارير . ويَدخل التاجُ . ويأتي على سَبَإٍ . يـوسفُ و الأميرْ . وتأتي الهُوَيْـنَا . وتَـحْمَدُ العَرشَ . داعـيـةً . أفّ لهـمً . فيوسفُ أنتَ . وأنت السُّـليمانْ .

لَـهْجَـةٌ

أيتهـــا الأنثى. مـاأنت إلا لهجــةٌ. صَــه. لك عنـدي صــورةٌ. لاتتحـدثي. أخشى عليهـــا. أنْ تتـدحـرج شُـرُفَاتُـــهَا. فـاسْكُتِي. ستَـنْزفِينَ دمًا. سَتَشْقَيْـنَ عذابًا. سَتَسْـألينَ المرآة كلَّ صباحٍ. أكلامي. كان نزوةً. أم كانت لهجتي. أم مَسكَني. أنا التائهـهْ. عرفتُ الأحوالْ. كلَّ الأحوالْ. في مَطْلَعِ الكون. انفجارُهُ الأكبرْ. في بدء الخليقة. كَلمَهْ. وآدمُ كَلمَـهْ. وحـوّاءُ. و الشعـرُ. كلمـهْ. وبـدايتي. كـانت. كلمـهْ. فعشقتُ الكلمـهْ. على جـدار الصّمت. كَسَـرْتُ قلمي. بين الهواتف. ضاع صـوتي. ماخلتُ أنيّ قـد أتوبُ. مُدْمنًـا كنتُ. فاقـدًا حسَّ الإباءْ. فتعجّلتُ الغـوايـةَ. واستَطبتُ من الهوَى. ونـاديتُ بـالأحضـان. أيتهـا الدواهِي. إني لَـأنتحلُ القصائدَ. مستلذًا بدمعها. كاظمًـا لغيظ الشعرِ. ألوِي اللّهاةَ. وأغَـصُّ. كمنتحرٍ بسيـوفِ اللفظ. مُرَاوحًا بين الدعاءْ. لَزجًا. مُفَاخرًا. مكابرًا. طَلَبُ الشهادة. ليس يَعْني. أنْ نموتَ. طلبُ الشهادة. أن نَعيشَ. وأن نَـرَى جنينَ الهوى. تفتكُّـهُ الأبـدي. ويُودَعُ. سَلّـةَ التاريخِ. مُهمَلاً. و الـمقَابـرَ.

ألا فانْــضَــرِمي أيتهـا النارُ. ألا فَالْــتَهِــبِي . مع الفجـرِ. وعنـد الغَسَقِ. وانبلاجِ النـور . والخيطُ الرقيـقُ . ساطــعا يتسلّلُ . و القُـرص الأحمــرُ. والكوكبُ الهــادي. و الأفلاك هـائمـةٌ . ويَـخرج السـاعي . حريصـا. مؤذّنا . قَطَرَاتُ النَّـدَى. تُـبَـلّلُــهُ . وليس يدري. متى يتصبَّبُ الطَّلَـلُ. أو يترامى الـرَّذاذُ. الحقلُ عائمٌ. و البـاسقاتُ مـزارعُ ومفاتنُ. سرابيلُها الخُـضْــرُ. فوّاحـةٌ بشَذَى اللّواقِحِ. و النخلـةُ الحوّاءُ. عطرُها. يأتي السَّبايا. فَـيُــنْـشِــدُنَـهُ . وتمضـي بُرهَــةُ الفجرِ. ويعلو من الأشعة . همسٌ كهمسةِ الأقراص. وهي واجمةٌ . تَـتَحَفَّزُ. تـدعو إلى الظلِّ الوَريف أناملَ الفيضِ . مَسْلاَةٌ كفراديسِ الشَّـجَى. ويأتي صباحُ الفجرِ. ويَسْكُنُ الكونُ. و البـدرُ يَنحجبُ. وتحتفل الأفلاكُ. و الخلُّ بخـلّــه. وتَصْدَحُ المآذنُ. بصوتٍ قَرَاحٍ. ألاَ أيتها الشمـسُ. انكَسفـي . ويَـنْسَدلَ الظلامُ. وترتعش القلوبُ. معصوفةً. منها الرُّضابُ. يتصبّبُ. و الأيكُ محفوفٌ. بزَهْرِ الجنــانِ. وردًا عـبيقا. تائـها في الـروض يتلــوهُ النَّدَى. واللَّحْنُ. كَشفَاه الصوتِ غامزةً. يَعْـلُو. ويَـخْفُتُ. مُنشداً. ومردّدًا. أوّاهُ يازَمنُ. قفْ هاهنا. عليك بنا.

لو تَسْكُنُ الأفلاكُ سَاعَـتَـنَا . ويـؤوبُ من ساحرِ الألوان. طيفٌ. خذ بيدي. فالأناملُ داعيةٌ. يأتي الرحيقَ دبيـبُها. ويَنْبلجُ السعيرُ. كألسنة اللّـهَابِ. مالي أراكَ مسارعًا. فالعُشْبُ أخضرُ. و الرُّواءُ مكابرٌ. أنساغهُ

البِكْرُ. عيونهُا. تفيض من غَسَقِ الفـؤاد. جداول اللفظ. كظـلال عرشٍ عنـد الأصيل. عنـد الفصيحِ. عليكَ بِي. تبـرًا فَتبْـرًا. هاتـوا البرايـا. كالمفازات التي. بها أمَلي. بها لَـهفَي. لا تُوصدُوا البابَ. ولا الجداولُ ترتوي. إلاّ مَـتَى. تُصيبُ الوجدَ. و الريحانَ. ونَرْجَسِي. فُـكَّ العقالُ. وأُطْـبقَتِ الجفـونُ. وتحرَّكَ اللفظُ. لـو نطق الطيـرُ بـه. لأمْطـرَ القلبَ بإعجازه. بـإيثاره. بلحنٍ كجوّاد الـمَرَا طب و النُّهَى. فيكَ الـرحيلُ. وصحراءُ أرضي. هضـابهُا. وتلالُـها. مُـحْمَـرَةٌ. أحبَبْـتُهَا. منـذُ فجرٍ تائه بين الحنـايا. فضاؤهـا الرَّحبُ. يلوذُ بمَعْـبَدي. بالغابـة الوَعْـثاء. بـالعطرِ العنيف. كسهـام نبلٍ. قوسُهـا. فاسكُني. فـالغيثُ آت. ومن قَبْـلنَا. عَطَشُ الظّمآن سُـلاَفُنـاَ. فَلْـتَظْمَئي. أوَجْـدٌ هـائمٌ. أم جنـونُ الرّاشدينَ. القادرينَ. الفاتحينَ أقفالَ السرائر. و القائلينَ. إنَّ الفتى. أنَّـى أتَـى. وارتمتِ الأطـرافُ. وعلى الرُّبى. يَنتكس الـمُكابرُ. غُـفرَانَكَ الـذّنبَ الـذي قـد تَأبَّى فَسَجَـا. وأقسمتُ عليكَ. بلهجتي. بـالـذي أسْـعَـرَنـي. خُـذْنـي إليـه. على الـميناء راسيَـةٌ. شراعُك بيـدي. رايـاتُنَا الحمـراءُ. بيضٌ. على شـاطيء الـزهو ترسُـو بنـا. مُعَسْكَرُهَـا الجنـونُ. وصـوتٌ ساحـرٌ. طُـوبَى لِـمَن بـنارِكَ يَصطلِـي. يـا مَن يَـصطلِـي. وعلى جِـمَـارِكَ يَلتوي. وفي نهرِكَ الفـوّار. أبـدًا لا يرتوي.

شَـــدْوٌ

قُبيلَ الفجرِ . تَيقّظَ حسيّ . فـأفقتُ ثَملاً . وتوهمّتُ نـوما . سـافرتُ فيـه . لا يَـرُدّني وقتٌ يمضي . ولا أرضٌ حَـزَنٌ . حتى إذا . مـا بلغتُ النُّـهَى . خلـوتُ إلى الحبيب . مهاضبًا . أجُسُّ إليه الطـريقَ . بين المعاطف مترفّقًـا . أدنو . ثُـمَّ أتوقّـفُ . فيأخـذني التَّـوْقُ . ثُـمَّ . يَصُـــدُّني . هَفيفُ خَوْفٍ . كـالرّعشة نَخْشَى بها . أن ينقضيَ الـذي بنا . فأعـاودُ . فإذا الذي بِـنَا . بعضُ ما بِنَـا . تَـمرّ أنَامِلـي على الصّحائـف . فيـزهو اللفظُ متلقّفًا . وتنفتحُ المعاني . مُعَانـــقَـةً . كاللّغو البعيـد آذاه الحنينُ . إلى وطنٍ . فَحَـلَّ به . يُـقبِّل أرضَه . ويُمَرِّغُ الوجهَ على الكلمات . يَستنشق عبيرَ الـمَـرَافىء . يهفـو . كصبيٍّ إلى الـــمَحاضن . وسمعتُ اللفظَ يشدو . فـانسـدلتْ على الـوجنتينِ . مَعَـازفُ الشكـوى . وأحسستُ أنّ الكـلام يتظلّم . يـريـد أن يُـــفاتِـح . فلا يُــفصِح . وَيـئِــنُّ أنيــنًا يَـعَـضُّ فـؤادي . فأردّدُ لـــه الصَّدَى . أباكيهِ بالدمع السّخيِ . ثم أضْــغَطُـهُ بين الحناجر . فَيُسْلم أنّةً . تُنادي بـلا مَلَل . فأحتضنُ الألفاظَ . كأني مُـلاَثمٌ . ومُقَـبّلٌ . ثم أعتصرُ اللّفَـافَ . هفًّـا كأنـه المعنى . أبْخِرَةُ الـرُّوحِ . تُصَـاعدُ الأنفـاسَ . وأتركـه

يفيضُ خوفا . يكاد يَغْضَبُ . حتى إذا ظَنَّ الكلامُ . أنّي مُعذّبُهُ .
تسلّقتُ الهضابَ . في يَدي الألفاظُ . وأمسكتُ تلاَلَها . عنيفًا كأنيّ ظالمٌ .
أجُسُّ . ثم أمسكُ قابضا . ثم أضْغَطُ . لا يؤوب لي حُلْمٌ . ولا يراودني
الإشْفاقُ . أثبّتُ الحروفَ على الصحائف . بين السطور . أوشك أن أقتلعَ
ما بَدَا . وماخَفِيَ . وأنا بين زفرة و أنين . و النارُ تَوَقّدتْ . من طوق .
وخلا القلبُ . إلا من هيبِ شوق . كالمعنى يَتَخَلّقُ . أسمع أزيزَهُ .
يعلو . ويعلو . ويَلهَفُ . صائتا و مغرّدًا . رحماكَ إغاثتي . أدركْني . مَدَدًا .
مددا . لا تُشفقْ . ضفافي موطنُكَ . شفاهي عبيرُكَ . مكامني أسرارُكَ .
وحين توسدتُ اللّوْحَ . وَأسْلمتُ إلى اليراعِ . ذراعي . وفاض اللهيبُ .
وتوجّس الكلامُ نقمتي . صاح بنفسه . يَجْلِدُهَا :

تَبًّا لساعة كَفَرتُ فيها بنعمتكَ .

سُحقًا لغفلةٍ زاغت برُشْدي فضيّعتْ حبّي .

رَجْمًا ليومٍ خلتُ فيه أن أكون غنيًّا . فَطلبتُ إليكَ هجراني .
وكابرتُكَ فيه . ثم أصْرَرْتُ على الفُرقة أعلّمُكَ فيها الدّرسَ .

لا حملتْ بمثلك أُمٌ أيُّها الماردُ الذي هَمَسَ في كبريائي همسًا
انتفَخَتْ به أوداجي خَوَاءً فاختلط الدَّمُ النقيُّ بوعثاء الضّلالة .

أيها الإلفُ الحبيبُ . ما أنتَ إلا مَن عرفتُ . ما أنتَ إلا أنتَ .

وَسَجَا الرفيقُ . فتلَمّحتُ في العين دمعةً . كَشَهْدَةِ العسلِ . خِلْتُها

نذيرَ مَنـاحة. فارتشفتُـها. فكانت قَـطَرَات الجَـوَى. تُسَاقِي فَرَحًا. أبَـدَ الدهرِ. كدمعةِ الأنثى ليلةَ زُفَّـتْ إلى الحبيبِ لم تَعرفْ قبلَـهُ حبيبـًا ولا تخالُ بعـــدَهُ.

ثم سكَنَ الفجـرُ. فَنِمْتُ. وسمعتُ الكلماتِ يُـــرَتِـّـلْنَ تســـابيحَ الفِداء. وسمعتُ إحـداهـنَّ تـنادي من بعيدٍ:

كنتَ حبيبـًا يـومَ عرفـتكَ.

وكنتَ حبـيـبًا يومَ استشاطَ غَضَـبُكَ.

وكنتَ ألفَ حبيبٍ يومَ لم تَـهْجُـرْ ولم تَـنْـقَـمْ.

فَمَنْ لي بالسماء تُـعِينني على نفسي كَيْ أخْلص لنفسي.

ومن لي بأحمال الأرض تُـــعينني على رضـاكَ منـذ بُحتُ لك: إني خالصـةٌ لكَ من دونِ الكلماتِ فَصَـــدَّقْتَـنِــي وكدتُ بعـدَها أن أكْـذِبَ نفسي.

فعهَـلاً قبلتَ مَـتَـابتي.

هـي خـالصـة خـالصـة.

وأنـا الخـالـصة الخالصة.

جَمْـرٌ

الواحةُ جنـانٌ تسقيهـا الميـاهُ . و الجزيـرةُ دِيـرٌ كصلاة الآمنيـن . و الـرَّبـع روضةٌ ترتجـفُ فيها قلوبُ الخائفين .

إذا قَطعتَ زهرةً فَتَـذكَّـرْ مَـنْ سَقَـاهَا . وإذا وقفتَ على الأهرامِ فلا تَـنْسَ مَنْ ماتوا وهـم يجُـرُّونَ الأحجـار .

استَلَّ السِّنجابُ قطعةً وانـزوى بها في المغارة خائفـا ثم خرج يمشي واستوى على الغُصْنِ وتَـمطَّطَ فَرْوُهُ فكأنّـه لم يعرف الجوعَ يوما .

الفتنةُ أن تُلْقِيَ بالأجسادِ في التّنّور تَصطلي و الافتتانُ أن تَضَعَ اليدَ مِن كفّها على الجمرِ فتكتوي فلا تَـصْـرُخُ ولا تستغيثُ .

كان شعب من الشعوب مُغْـرَمًا بالأمـثال ينتَهـج فيها نهـج الصُّـوَرِ و التمثيلِ وكانوا يقولون : الرَّجُلُ كالـرأس و الـمرأةُ رَقَـبَـتُـهُ يَـخال أنه قد تَـرَبَّـعَ عليها جالسا وما يـدري أنها هي التي تُديرُهُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشّمال .

إنْ يكُن الأبُ نـاظما والأمّ لـلأزجـال قـائلـةً فـلا تلومَـنَّ البنتَ إن فاضت بالشعرِ أقوالُـهـا .

الهاتفُ رسالةٌ و النظرةُ خطابٌ و الصّمتُ إبلاغٌ و الرحلةُ كتابٌ وقضاءُ الليلِ سِفرٌ من الأسفار.

لشركات الكمبيوتر شاراتٌ . من كُبْرَيَاتِهَا واحدة اختارت صورةَ تُفاحةٍ مقضُومة. قال قائل: هذا من الفن الرمزيّ. وقال آخرُ: هو من الرسمِ الجديد . وقال ثالث : هو مما بعدَ الحداثة . وقلتُ : لو لم تُقْضَمِ التُّفّاحةُ ما أُكلَتْ ولو لم تُؤكلِ التفاحةُ ما نَزَلَ آدمُ الأرضَ ولو لم يَنزلْ ما كانت حياةٌ .

السَّحابُ قد غَشِيَ السماءَ . وَأذنَ المُزْنُ بماء هاطلٍ . فَجَاءَ رعدٌ . وجاء برق . وعَصَفَتِ الريحُ بما عَصَفت . وانتظرنا الغيثَ . غيثَ السماء . إيّاكَ أن تحوّلَ أمل اليوم إلى اليأس من الغد وإذا شَقيتَ بما نفسُك فيه فاسعَدْ بما يَدُكَ عليه .

لخطوط الطَّيَران شاراتٌ . لهذه حمامةٌ . رَقَّتْ. وانسلَّتْ في الفضاء مجنّحةً. كأنها تطير. ولتلك غزالةٌ . تمدّدتْ . لكأنها. في عَدْوها . حمامة فرّت من أيكها . وللأخرى صورةُ طائرٍ. من الجوارح . عَيْنُ حَدَأَةٍ وأجنحةُ العُقَاب . مَخَالبُ النّسرِ و أزيزُ الصُّقُور .

الكونُ كائناتٌ . جمادٌ ونباتٌ وأحياءٌ. وصندوق البريد من خشبٍ ومعادن. مفتاحُه وكذا جدرانُهُ. جمَاداتٌ. و النّخلةُ نباتٌ. إذا ماتت. وجفّ رُواؤُها. وقُطعت هامتُها. فجذعُها الباقي . وقدأيْبَسَ . جمادٌ .

ألفَ الجذعُ زائـــرَهُ . وعنـــد الهجـران . أنَّ الجذعُ واشتكـى . حيٌّ بين الأحياء . تَـمَّت الدائرةُ . وطُـويَ السِّجـلُّ .

سيِّدةٌ أمينـةٌ . جاءت إلىَ البنكِ . وفي يدهـا صكٌّ . تريـد صرفَه . فـاستلمتْ . ثم عادت . فقـالت . يـاسيِّدي . ماأعطيتَـني . يفيض على القيمة . فهاكَ الفـائضَ . رَدَّ عليها الخازن نقودها . وزمجرَغـاضبًا : «أمينُ الخزانة عنـدنا لا يخطىءُ» . فحارت برهـةً ثم أفاقت . آثَـرَ الإبـاءَ فأضَاعَ عَـفَـافـي .

الـبُـرْقُـعُ لجـدّتي . والخـمـارُ أمـومتي . و القِنـاعُ لطـفلـتـي . و الحجاب لسيّدتي . و الهَودجُ هودجي .

أخذتُ المقـودَ . وسرت بسيّارتي . على الطـريق السّيّار . ثم أضأتُ النور . يمنةً . وإذا بي أركَـنُ .

لقد ركنتُ على الشّمالِ بمركبي .

النفس عـودٌ . و الظنون نيرانٌ . يَـدبُّ لهيبُـها . استقـام العودُ أم لم يستقم . ولولا قيظ الشك . لما عُرِفَ برد اليقين .

في يـدي اليمنى وردةٌ . وعلى شفتي السفلى تَـمرةٌ . وفي مسـامعي لحـنٌ نجـيّ . قـد عـانق شعرا رقيقـا . والكفّ تـلامس بأنـاملها . مسّـا شجيّـا . ففاح أريجٌ . وعـاودني عَـبَقٌ . وساورَتْـني مَبَاخـرُ الشرق . في قلبهـا عــود . وعلى المشـارف جمرةٌ . الخوفُ مـن الحبّ . كالخـوف على

الحبيب . كـارتعـاشـة البَـرْدِ الصقيعِ. كـالحمّى في شـدّة القيظِ. أحببتُ خَـوْفَكَ. أحببتُ جمرَكَ. عشقتُ قيظ حمَـاكَ. مثلَ ليلٍ هـادىء. مثل الظّلمـة في السكـون . يَـحَارُ القلبُ . يطـول السُّهـادُ. ليـس القـادم كالـمُرْتَـحِلِ . ولا يومي يُشْبِـهُ يوما من أيام أمسي .

إذا زُلْـزِلَ العرشُ . واهتـزّت الأرضُ . بجبَالِـهَا. وهوى البِنـاءُ. فَـقِفْ. صامدا. وقلْ . في صَمْتٍ. وفي جَلَدٍ. إنّـي هنـا .

هَمْسٌ

هَبَّ نسيمٌ . وأنـا على سفح الجبلِ. أطُوف بـالوادي . وأهل الـرَّبع نيامٌ . فتعطّرتُ به . وفتحتُ جوارحي . طالبا . هل من مزيد . وغَمَرَتْني رائحةٌ . حَرّكتْ سواكني . فنقلَتْني مما كنتُ فيه . وأخذتْ تَـجرُّني . حتى ظننتُ أنّني . أُحْيي زمنا مضى . وأمعنتُ في الرّحلة . متخطّيًا لحواجزي . متسـاميًا . كأنّ الجسم قـد خَفَّ منّي . وإذا أنـا . كَحُلْمٍ شاردٍ . أرْفُـلُ في حُلَلٍ . فعرفتُ أنيّ صادق .

طـائرٌ يَـروُقُـهُ البحـرُ . وطـائرٌ يَـحْسُدُالسَّمكَـةَ . وهي تَسبحُ . وتقولُ . مَنْ لـي بمجد . أو بسحرٍ . أو بِـقَدَرٍ . يأخذني . من الماءِ . إلى عنـانِ السّماء . فيَـهْوِي الطـائرُ . بَـرْقًا صـاعقًـا . ومن أعماقِ البحـرِ . يأخذها . ويُـحلّقُ عاليًا . ومُفاخرا . قَـنْـصًا شهيّـا .

خَلْوتي . كـِدتُ أخافُكِ . خلـوتي . لولا أنني . أحببـتُ ذاتي . منذ أحببتُ . خلوتي . منـذ أسرَّتْ لي خلوتي . منذ قـالت لي في عُزلة . للنَّعيم لـذّةٌ . وفي الحـرمَان لذّاتٌ .

أرتشف من الفنجان جُرعةً . جُرعةَ القهوةِ . حيثُ لا سُكّـرٌ . هكذا

أتعـمَّــدُ. أتقصَّـدُ . كلُّ الـمرارة في بـدايتها . ثـم تنقشعُ . وقـد أوصَوْنـي بترك السُكَّــرِ . ولستُ معتـلاّ ولكنْ روّضـوني . وقـالـوا . هـو أفْضَلُ . وقــالـــوا . ستغـــدو القهـوةُ . حلــوةً . بــلا سُكّــرٍ . حينَ تتعـــوَّدُ . بها تَأنَــسُ . وتُؤَالفُ . تَـرْكَ السّكّـرِ . ففعلتُ . وهـا هي ذي . قهـوتي . بـلا سكّرٍ .

قـالـوا . ما أسرعَ أن تحبَّ إمـرأةٌ . قـال . إذن . مـا أسرعَ أن تَنسَى النّساءُ . قـالوا . مـا أعجلَ أن يتحوّلَ رجلٌ . قـال . ما أهـونَ أن يتهافت الرّجال . فَـتَحَاكموا . قالَ القيّمُ . إذا عَـزَّ عند المرأة حبُّهـا . أمْسَـكَتْ . حتّى يطول عصامها . فإنْ هي أسْلَمَتْ . هَـانَ سلامها . يخالونها تتهاوى . وهي لا تتهاوى . قال . دَكّـا لرجلٍ حديد . ليت أنَّـهُ . من ضلعها .

قالت . هذا يناديني . وذاك يصافحُ . وثالثٌ من أعالي الشرُفـاتِ . يُطِـلُّ . مُــحَابِيًا . وأخٌ له . على الممرّ الأسفلِ . يشيرُ مُغـازلا . يراودني . وأنا كما كنتُ أنا . وأنا هنا . أدعو وأبتهـلُ .

أفتح كتابا . أستلّ ورقةً . أقْضِمُ أطراف القلم . في انفعالٍ . في توتّرٍ . ثم أبحث عن مُعْجَمٍ . عن قـامـوسٍ . ولســان العَـرَب . وقــد هَـدَأت الخواطـر . فأقـرأ متنًـا . وشرحًـا . وحـاشيـةً . ثم أقتفي صلَـةً . تتلـوهـا الصّـلاتُ . وأعـودُ إلى المقعـد . إلى الأريكـة . والقلبُ فَـوْضَى . و النّفس سائحةٌ . وأسألُ . مَن أنَـا . ثم أستدركُ . وكَـمَ السّؤالُ .

على المكتب. نظرتُ إلى صورتي . وفي المرآة . تأمّلتُ صورتي . وعلى الهُويّة. وجوازِ السَّفَرِ. وفي المحافظ . رُحْتُ أقلّبُ. أقرُّ بهذه. و أستنكرُ هذه. ثم جمعتُها . وأعدتُ على المنضدة توزيعَهَا . وترتيبَهَا . وقلتُ . لو أختارُ من بينها . أوْلَو أسوّي بينها . وانتبهتُ إلى السّاعة . في معصمي. فوجدتها تتحرّكُ. فلَمْلَمْتُ ما تَنَاثَرَ. وطويتُهُ. طيّا رفيقًا.

وكنت أحبُّ الموسيقى . كنت أعْشَقُ الألحانَ. و اليومَ أريد أن أغنّيَ. فلا صوتي يطاوعني . ولا الألحانُ ترتادني . فأعود إلى الأنغام أسْمَعُهَا. فيأبَى السّمعُ. وتتمرَّدُ. على إرادتي أذُني .

العشقُ . إذا سَمَا عاليًّا . العشق. إذا علا مسرعا . وإذا حلّق زاهيا . وارتقى صُعُدًا. فأشفقوا عليه. وعلّقُوا التمائم. وَاقْرَؤُوا لَهُ . سورةَ الإخلاصِ. وسورةَ الفَلَقِ.

من المكتب. خرجتُ إلى الصالون. ثم إلى الشُّرْفَةِ. دَخلتُ المطبخ . وأطْللتُ على الحديقةِ. ثم نَادَى المنادي . إلى البهوِ . ثم إلى غرفةٍ في الطابق العلويّ. فامتلأتُ بالفضاءِ الرَّحْبِ. وانقبَضَتْ نفسي فجأة. فَالضّيّقُ ضيقُهَا. والرَّحابةُ من إحساسها. وما الكون إلا مرآة . على صفحاتها. تنعكس صورةٌ . هي صورةٌ مِن نفوسنا .

في الغابة . في الجوّ. وعلى متن البحار . أحسُّ بوحدتي. وبين أركان

المصحّة . حيث أسْتَشْفِي . في الـمَعْبَدِ . وبين أركان الـمَحَابس . هي عُزْلتي . كأنـه الهدوءُ. كأنه السّكونُ. لست بخـائف. ولستُ بمُرتجف. وسألتُ عزلتي . عن هُـويّتها. عن مَنْبَتِهَا . عن مَـرتعها الفسيحِ. أمِـنْ حَوْلِـي هِيَ . أم مِن جُودِ مَـنْ حولي. ومن حينٍ إلى حينٍ. في نفسي أراها. أحادثها. أكـادُ أحـبُّـها. سِيَّانِ عندي اليومَ . الثَّـرَى و القَـمَرُ.

إشْمَامٌ

قالت لـيَ اللغة : أنتَ العاشقُ الجديـدُ . لا أقولُ لكَ إلا ما قاله من قبلك ابن الحسن :

«اقعُدْ في ثُـقْبِ الإبرة ولا تَـبْـرَحْ ، وإذا دَخل الخيطُ في الإبـرة فلا تُـمْـسكهُ، وإذا خرج فـلا تُمُـدَّهُ، وافـرحْ فإني أحبُّ الفرحـانَ، وقُلْ لهم قَبَّلَنـي وَحْـدي ورَدَّكُـمْ كُلَّـكُمْ. فإذا جاؤوا معكَ قَبَّلْتُهـم ورَدَدْتُـكَ ، وإذا تخَلَّـفُـوا عَـذَرْتُـهُـمْ ولُـمْـتُكَ، فرأيتُ الناس كُلُّـهم بَـراءٌ» .

قلتُ للّـغـة :

أيتهـا الضـادُ. مفتـاحُ قلبـك بِـيَدي . وأزرارُ الفسـاتين . وسِـدرَةُ الـمُنتهَى . بيدي . أنت . بيـدي . أسماؤُك التي قـد خَطَّـهَـا القائلـونَ . أوصافُـك كما حـرّفها الـمُداعبونَ . بيدي . أوتـارُ قلبكِ . بالـنَّغَمِ الحائرِ . بيـدي . رِيشَـةُ العَـزْف . وآلـةُ الـدَّبْـك . ومعْطَفُ العُـود . وتسـابيحُ القانـون . بأناملي . مَفَاتِحُ الآهـات . ولذائذُ الأنين . بأصـابعي . مَفَاتِنُ اللّفظ . لـو أمْسكْتُ . ماقـالوا بك شعرًا . ولـو تمنّعتُ . ماسُمـعَ صوتٌ لشيطـانِ الخليلِ . إيقاعك بيـدي . وتفعيلاتُ الـوَزن . وأساريـر الضَّنَى .

أمواجُ البحـور. وصورةُ الفنّ. وتمثـال الهَوَى. كلُّها في مقْبَضِـي. لـكِ الغاباتُ. فانسَـرِحي . لكِ الأعشابُ. فتـوسَّدي. لكِ ما شئت. لكِ ما أشاءُ. أقمتُ سجنًا. وشيَّـدتُ قبرا. ودَفَـنْتُ بَنَاتك. لَـهَجَاتِـك. دَفنتُ الحزنَ الذي . أحْبَبتُـه رَوَّضْته. أقسَمْت يومًا. بالوفاء لَـهُ. بالعُمْر. كُلِّ العُمْرِ. مافـاتَ منهُ. وما هو آتْ. بـالصَّبرِ. بالجَوَى. سَفَّهتُ أحلامَك. وقَـهَرْتُـهُ . أنْـبَـتُّك زهرةً. وأيقظتـُـك ريمًـا . ودفنتُـهُ. بأسمائك التي نَطقوا بها. وبأوصافـك التي غازلـوها. لأحفـرَنَّ مغارةً. بئـرًا سحيقًا. ولأدْفـنَـنَّ في غَيَابَاتِـهَـا . عقاربَ التّاريـخِ. وأشيـّدَنَّ مقبرةً . شاهـقةً. عملاقـةً. ولأرْسُمَـنَّ رُخَـامَـةً. ولأكـتُـبَنَّ. هـذه مـدفنـة الـزَّمنْ. فَـلْـتَمُتْ. يا أيُّـها التاريخُ . ولتعشْ. يا خالـدًا. يا سرمـديَّ الكَـونْ.

أيتُهـا الكلمـهْ . أرْهقـتُـكِ . صـوَّرتُ حبّك. ومشـاعـري. يافـتْـنـتي. ما حيلتي. أنا الظالمُ. ماحيلتي. أنا الظـالم. ما حيلتي. وأنا الـوفيُّ . فلَن أخونَ طبـائعي. ولن أغيـّرَ قبلتي. سأظلُّ دومًا. رائحـا أو غاديًـا. طولَ البحَـارِ. وعَـرْضَ الـمَدَى. لك ظالـمًـا. سأظلُّ. وإذا الدنيا تخايَلتْ . فكَفـتْـك مظالمي. وأوجبَـتْـني طاعـةً . فلتعرفـي . أنّـي أنا . قـد خَيَّبَ الآمـالَ في ظُلمه. وإذا ما الظّلـمُ صاح مخاصمـًا . وأتاكِ بَـعْدي . واشتكَى. متأوّهًا. بأنـيـنـه . فَتَبـتَّلي . بـاسم الهَوَى. وترنَّـمي. باسم الجَوَى. و قُولـي. بِملْءِ جوانحي. بالأحلامِ. بالأرَقِ.

بالفاء بالجيمِ بالراء. بكلّ فجرٍ باسمٍ. بالفجرِ مُفردًا. بالفَرد مَجموعًا. وبكلِّ رَنَّةِ هَاتِف. بالموعد. بالألواحِ. بالخَطِّ الفاتنِ. بالسِّحرِ الحرامِ. قولي. ولا تَتَردَّدي. بُورِكْتَ لِي. يا ظالِمي. إني لظُلْمكَ قد أتَيتُ شَفِيعةً. لاتَستَهِنْ بشفاعَتِي. بُورِكْتَ لي يا ظالِمي.

إِدْغَامٌ

في تجاعيد الوُجود الآتـي . سيُضاجعِ التاريخُ لُغَتي . سَتَحْمِلُ . ثم تَـضَـعُ . سَـيكْبُـرُ الوليدُ . ويَـنْحَرِفُ . فَتُنَاجيـهِ .

أيهّا الشّعـرُ . ما أنتَ إلا ذُكَـرٌ . وكل الذّكـور سَوَاسيَـهْ . أيها اللفظُ اللّعينُ . أوْهمتَـني . أنّكَ مُفْـرَدٌ . ألاَّ سواكَ يُـمَـاثلُكْ . فإذا أنا . كـالغرَّة المخدوعة . آمَنتُ أنـكَ كاملٌ . قَدَّسْتُ لَـفظكْ . ولَـثَمت بالشّفَةِالحَرَّى . حُرُوفَـكْ . وعلى الأوزانِ . رَقصتُ يـومي وليلتي . ورحتُ أمْـتَـصُّ رحيقَ الكلماتْ . وأقولْ . هو البعثُ الجديدْ . هو الفَنُّ . هو الخُلودْ . تمثالٌ من الإغريقِ . كآلـهة . يَـعْجـزُ الفنُّ عن نَحْتِـهَـا . لها يَسجد التّـائهُ . لها . ولظُلمهـا . وتحت غـَـمَـامها . يَستظلُّ فـؤادٌ كَسيحْ . وفي رحـابها . تَـحْتَـمي . تِلْكُمُ الأُنْثَى التي . كانـت تَظُنُّ أن الرّجالْ . وكلَّ الرِّجالْ . قد عـاشوا مـرّةً . ثم مات جميعُهمْ . وما الـدنيا . في هـذه الأزمانِ . إلاّ . بأشباه الرِّجـالْ . مَـلأى . فإذا أنا مخدوعةٌ . بالشعر . ومـا الشعرُ . ما هو إلاّ زائـغٌ . مـاكـان إلا مُزَيَّفـاً . دَوْسًا لمنثـورٍ تَفَـرَّطَ عقْـدُهُ . طَعْنًا للجواهر صُنّعَتْ . بمَعسولِ الهَوَى . أقسمتُ بـالشّعرِ . كم كان أحْرَى بهِ .

ألاّ تَـزُوغَ أبصـارُهُ. ألا يخونَ العهـدَ. عهـدَ وفائـنا. عهـدَ الأمانـي.
يَتَـقَاطَرُ عطْـرُهَا. نتساقى أريجَـها. نموتُ ونحيـا. بين نهرٍ وجدول.
تهادَتْ نفوسُنَـا. كَ تَخَايُلِ الفِردوسِ. أبديَّـةَ الأزمانِ. خـالدةَ الهَـنَاءْ.
شرقيّـةَ الأنسامِ. صـوفيَّـةً. حتّى الجُنونْ. مجنـونـةً. كنتُ أنـا. مجنونـةً.
مازلتُ أنا. فَبِمَن أجَـنُّ أيا تـُرى. أبـالشّعروقد تهتّك عـرْضُهُ. أم بالنّثرِ
والجفـاءُ مَـجَازُهُ. يـا أيّها القـومُ. هُبُّـوا مَعي. وتمَـرَّدُوا. يـا أقـدارَ
الكونِ. تَـبَدَّدُوا. يا أسماءَ الشعرِ. تَـفَرَّقُوا. فلستُ قـائلةً لكمْ. مـاكنتُ
أقـولُـهُ. ولكنّي. سأهمس همْسَةً. بها أهْـتكُ الأعـراضَ. سأقـولها.
سأبـوحُ بِسـرّهَا. سأقولُـها واللسـانُ مُـمَزَّقٌ. سأقـولُـهَا. والفـؤادُ
بِـدمَائـه يَـتقطّعُ. سأقولُـها. ولـلأقدارِ مَغفـرةٌ. سأقولُـها. ولستُ
براجعـةٍ. سأقولُـهَا. ولستُ من اللّواتـي. أنوحُ وأنـدَمُ. سأقولُـها. كلُّ
الرجالِ سَوَاسيـهْ. سأقولها. حتّى أنتَ يـا ولَـدي.

نَبْرَةٌ

. . . وإذا القائلُ هو القائلُ:

« . . . أنتَ صاحبي . فإذا لم تجدني فاطلُبني عندأشدّهمْ عليَّ تمرُّدًا . وإذا وَجَدْتَني فلا تَعْصِه . وإن لم تجدني فاضربه بالسيف ولا تَقْتُلْهُ فأطالبَكَ به وَخَلِّ بيني وبينك . ولا تخلِّ بيني وبين الناس . وخاصمني . وتوكَّلْ لهم عليَّ . فإذا أعطيتُك ما تريد فاجعلْه قُرْبانًا للنار . وقف في ظلِّ فقيرٍ من الفقراء . فَسَلْهُ أن يَسْأَلَني . ولاَ تَسْأَلْني أنتَ فَأَمْنَعَ غَيْرَكَ بمسألتكَ فتكونَ ضِدًّا لِي وَأَخْذُلَكَ » .

فناديتُ لغتي . زفرةٌ جاءت إلى القلبِ . زفرةٌ كالسّاحِرَهْ . أنينُها الحُلمُ . والذّاكرهْ . إيه . يَاذاكرَهْ . وأنا القادرُ . لَيْلاً ونهارًا . أنا القادرُ . بسائطُ العُمْرِ في مَفْرَشي . و المكانُ القَصِيُّ يا أيها الناسُ . ألا فقولوا . كما قال الذي قال . أنا العاشقُ . أنا الوَجدُ . أنا الزَّمَنُ . أنا الرّوحُ متّحدًا . أنا الحاضرُ . أنا الذي . على غير أهله كَتَمُوهُ . حَرَّمُوهُ . أنا العشق المُبَاحْ . أنا الزّمنُ المباحْ . أنا الخالصُ من دون العبادْ . القلبُ تغريدٌ ومِرْجَلُ . يشدُو . عن شوقِهِ لا يَرْحَلُ . وبسائطُ الخضراءِ . في وجدِهِ .

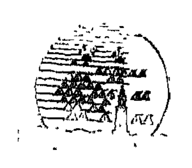
تَـهيمُ وَتَرْ فَـلُ. ونعيمُها. وضفائرُ زَهْوِهَـا . تَبْني البلابلُ أيْكَهَا. لتُقيمَ يـومًا. لتعـودَ دهـرًا. وكأنها عن ريـاضِ الوجـد لا تَـرْحَلُ . و الفجـرُ وَضَّـاءٌ. كأن شُعَاعَهُ. سَوَّاحـةٌ .تَـتَهَلَّـلُ. هَـلاَّ أبَـنْتَ القولَ. أمْ هَـلاَّ جَلَـوْتَـهُ . أيـا قلبُ. لا ظَمِئَتْ. جـداولُ الأنهارِ حولَـكَ. ولا أنتَ. بخالص شَهْـدها. حَتَّى الثُّـمَالَـة. تَـتَصَبَّبُ . تنسـابُ مَـيَّاسًا. تتسلَّلُ. متهاديا عشْـقًا فُـرَاتـًا. ومغنـّيًا نشيدَ عودتنَا. فإلى مَـتَى. هاذي الرُّبوعُ . تتباعَـدُ. وإلى متى . هاذي القلوبُ. بـرضَابِ شَـدْوِكَ تتقطَّـعُ. وشهوةُ الذكرى. لقلب مُـقْفـرٍ. والشموعُ. تُؤَاكِلُ الشُّهْبَ لُـعَابـًا. ونارٌ تَـقذفُ الفتائـلَ حـمَمًـا . وتَهَـلَّلَ النَّخلُ. وارفَ الظّلّ . وسرُّ الكون حـرْقَةٌ. تطوي حرقـةً. ويهتفُ الهاتفُ. لتدخلوا الأفُـقَ الـرّحبَ . مُخضَّـبينَ. غيرَ خـائفينَ. والفتـحُ القـريبُ. وكلّ شيء مُـرَتَّبٌ . مُنَـضَّدٌ . مُـوَقَّـعٌ تَـفْصيلاً. فإن أنا متُّ . فَـسُـبَّنـي. وإذا رحلتُ فنادنـي. تُعَانـقُ الرّوحُ صَلِيَّـهَـا. والطُّهْـرُ أورَقَ. والمياهُ جَـوَادبٌ. و النهـرُ أتُّـونٌ ومرْجَلُـهُ الـدَّمُ. وتـرتـوي النفسُ فـداءً. ومَـوجُ البراري . رمـالٌ كـالجواري. لـمـثلها . عَـنَّت الـذّكرَى. وَدَاءُ الـوَجد نسْـيَانٌ يزولُ. أرَوّضُ العشقَ ألوانـًا. وتَسْكُنُ النَّفْسُ. والقلبُ طائعُها. إني أنا الساكبُ . فافتَحْ لـيَدي. ثغرَ الشَّـرابِ. واصْبرْ على جُرعَـة. واكفُـرْ بالّذي سكَـنَكْ. وافْـزَعْ . وقلْ . بـاسم الكـواكبِ. دُجَـاهَـا اللّيلُ. ونـورٌ واجفٌ صَمَـدُ.

إِمَالَةٌ

أيتها الفصحى : سعيدٌ . وبحبّك أكثرْ . أعطيتُ . ولكنْ لك أكثرْ . في البدء كانت كلمةٌ وأكثرْ . واليومَ أكثرْ وأكثرْ . عانقيني . دثّريني . صَوّري على جَسَدِي . رسومَ اللّفظِ . وَوَشّحيه . بلوحاتِ فنّك . ثمَّ أرْسليِ . على معاطفي . وبين جوانحي . خمائلَ لَيْلِك . إنّني . مَلّكْتُكِ نفسي وأكثرْ . أعانق شوقا . فإلى غيومك رحلتي . وإلى محيطك مَلجئي . طريقي إليك مفازةٌ . بها الأشواكُ تَلْسَعني . عهدي إليك . غاضبة أو راضية . لبيكَ أيُّهَا التَّعَبُ . لبّيكَ لبّيكَ . يا أيها اللّهبُ . دَعيني ونثرَ العُقودِ . أنا حرٌّ . وحرّةٌ كلماتي . كلُّ قَيدٍ بِجُرْحِه . وكلُّ جُرْحٍ بِنَبْضه . فَمَتَى النّزَالُ . فالمَرْكَحُ جاهزٌ . وكذا الأبطالُ . والأضواءُ . والقادمونَ ليَنْظرُوا . مهرجانَ اللفظ جابُوا صوبَهُ . يعانقون الوزنَ . والإيقاعُ يُرْقصهم . إلاّ اليَتَامَى . هاتوا اليَتَامَى . دُرَرُ الألفاظ لها تتهادَى . نَثْرًا وألوانُه شتَّى . كما صاغ صائغ . أداعبُ الأوراقَ . أنا اللاَّعبُ . أحرّكُ الأحجارَ . كأنها العاجُ . من رُخٍّ ومن مَلِك . وهاذي الأميرةُ . تموتُ وتحيا . والبيادقُ حولها . تطوفُ بفارسِ الشّطرنجِ . حتى تُذيبَه . لِتقولَ عندئذ . كشٌ وَمَاتَ . فإنْ تحيا . فَبِإمْرَتِي . وإن تلهو .

فبلعبتي . وإن أنتَ أمسكتَ العنانَ. فقلْ لنـا . أيُّ الفوارس. ذاكَ الذّي . غاباتُهُ العُشبُ . أم هذا الذي للَـفْظـه ظالـمٌ . طَوَّفَتْ . فَلْتَـقْرَؤُوا . باسم الدّعـاء . صَـلاَ تَـهَا . وَسُهَادَهَـا . نهَارُهَا الليلُ . وبعـضُ أسمائهَا . إلى العـدالة . ومملكـةالعشق . مطلوبـةٌ . وَمَنْ غَـيْـري . أنـا الطالبُ . أنـا الطـالبُ . فاسألي العَـرَّافَ عَنَّا . ثُمَّ قولي . إنها الأقـدارُ فينـا . ربّةٌ تلهـو وأفلاكٌ تـدورْ . و الّذي نفسي بـِلاَهَا . والّذي عَـنَّا يَغيبْ . أنَّ ذَا الرُّوحَ مَلاَكٌ . أنّ ذا طيفٌ حبيبْ . عائـدٌ يوما يـُغنّي . سائحًا بين الدُّرُوبْ . في رياضِ الأُفْـقِ يَدعو . ويُنـادي . ويؤوبْ . هو ذا الحُلْمُ المُؤَجَّلْ . هو ذا الماءُ الـزُّلاَلْ . هو ذا الأيكُ الفـريدْ . هـو ذا الحبُّ العنيـدْ . فهل أتاكَ حـديثُ القِلاعْ . شامخات . صامداتْ . أقفالـها الصَّلْدُ . و الرواسـي الشاهقاتْ . الصّخرُ أوّ لُـهُ . و البرجُ قِبلتـهُ . وفُـتَاتُ القلوبِ . حبَّاتٌ على الأرض . طيـورٌ عابـراتْ . وإذا البرقُ هَفَـا . وإذا اللحظُ مـدادْ . رجفـةُ الأقـلامِ بياضٌ ناصعٌ . وفتحٌ قـريبْ . وإذا الـمَحَاجبُ تـرتوي . وإذا العسـاكرُ غـازيـاتْ . و الحصنُ مـرتعش . والأسوارُ . و السهـمُ فاتـرٌ . و الأقفـالُ هاويـةٌ . و النفس دَعـيَّـةٌ . والعصيـانُ نَجـيُّهَـا . والطّيرُ مالكُـهُ . نسورٌ خاطفاتْ . شعـاعٌ . والجمرُ . مقْـبَضُـهُ اليدُ . والأنـاملُ باسماتْ . ولذّةُ اللّحـظ . قلـوبٌ واجفاتْ . والأنَا فـوق الأنـا . والشعر فـاتـن اللـفظ و المعـاصم واثقاتْ . و الإسـم مكـرَّمٌ . و الـمَحْتِـدُ واسماتٍ عامـداتٍ

زاهياتْ . والكل مزدحم و الضمائر في الأنا . هو الأنا . فلتكوني وليكنْ . حـرفٌ و حـرفٌ . حيٌّ لا يموتْ . أجهشتْ بـاللفظ صـاحَتْ : أقـولُ فأندَمُ . ولا أبـوحُ . فيَشتكِي الوَجَعُ . لَـيْــلـي سُهَـادٌ . والنهـارُ . كَمَـنْ سَــلاَ . وكَمَنْ شَـدَا . سَلُوا قلبي غَـدَاةً . سوا قلبي أصيـلاَ . لا تسألوني . ولا تفعلـوا . فلو سألتـم . سَأَكْـذِبُ . ولـو فعلتم . سَــأكْـرَهُ . أن أقـولَ لكم . ما قـد قلتُـهُ . وعرفتُــهُ . وطويتُ صفحـاتِ الهَـوَى . ونسيتُ . أنْ أقولَ . إنِّـي عربـيـّـةٌ . عربيـةٌ . عربيــةٌ .



تضمينٌ

جَلَسْتُ. وثَـبَّتُّ في الـرَّمْلِ الـذهبيّ . بأظـافـري . وأقمتُ عِماداً . ونصبتُ شَمْسيَّـتـي . كما كان يَفعلُ أبي . وجَدّي . في غابـرِ الأزمان . في الصحراءِ . في شـواطىء العُشْبِ . وفي المراعي . وعلى ضفـافِ العيونِ . جلستُ . ونَصبتُ . وانتظرتُ كما انتظر مـوسى . قبل أن تجيء إحداهما . نصبتُ واستلقيتُ . وقلـتُ للشّمسِ : عليكِ . بمفـرشي أبْدِلِـــي منّي الغـلافَ . فأبي أسمرُ . وجـدّي أسمرُ . والقـارّة السمراءُ أمّي وجـدتي . أبْـدِلي جلْـدَتي . اصْبغِـيـهَا . أعْـرابيَّـةً . ذاتَ أنـوارٍ إذا انكشفَتْ . حُـمَّ الغَـمَامُ . وضاعَ لُـبّي . وبعضُ قلبي . وتـاهت الأنظارُ . ونادَى الطّيفُ : يا أسمرُ يا أسمر . هل يأمَنُ البحـرَ راكبٌ . هل يَـنْزِلُ النهرَ إلاّ مغامرٌ هل يَعْلـو الجبالَ إلا مكـابـرٌ . بُحـورُ النفس مظلمةٌ . أنهارُ القلـبِ غائمـةٌ . جداول الخضراءِ تَـبْتَسِمُ . شواطىءُ الأنس فيهـا جَـنَّاتٌ من الهَوَى . فاتنةُ الرياضِ . سَوَّاحَـةٌ . تُـغْرِي . مِنْ بَنِي عُذرةَ جـدّي . من قَيْـسٍ . من ديارِ الرَّبْـعِ . عَشِقتُ نفسـي يـومَ عشقتُ كلماتي . يَـا فُصْحَـايَ . هذا غِنـاءٌ . تَـهْوَى . أهيمُ بحبّها . تختالُ . أصبو بلهوِها . بغرامها . في مَرتع اللفظ .

في مَغــازل اللحنِ. في كل أغـــنــيَّـــةٍ. هــي نفسي. هي نفسي. واضحُ اللَّحن. أعْـزِفُ. أقودُ التَّخْتَ. وأمضي. شاديا. شـاديا. لكَ يا عربيّةً. أيتها الفصحى. لساني وجنـاني. أهديتُك روحي. وهل قليلٌ. أهديتُك أنفــاسي. ذراعي ومَبْسَمي. وهـلْ قليلٌ. مــا كنتُ أحْسَبُ. أنْ قــد غَفَلْت. ولقد نَسيت. ألفاظُ الآخرينَ. علامةُ عَيّهِمْ. علامةُ جِنْسِهِمْ. كَفّي. ذِراعي. صَـدْري وأنَــامِلــي. وكلُّ ما فــي جَسَـدي. شَـــهَادَةُ حُـــبّي. و تُــرجمانُ عــواطفي. لا شيء في جســـدي. لا شيء في لُغتي. يُــحَرّكُــهُ الهوَى. ما لم يكن. مِــنّي الفؤادُ. هائمــًا. بالحبّ قــد نَـبَضَا. الجسمُ حَــمَّالُ لَــذَّات بـلا أملٍ. و القلبُ إذا أحبَّ. هَـامَ في عشْـقــه الجَسَدُ. نَـفْـسي فلتستجبْ. يا لفظُ. أنَّــى مُنْيَــتي. بانَتْ. فجادَتْ. ثم هامتْ. فتشرَّبتْ صَفْـوَ الرحيقِ. رَحيقهَـا. فَـلْـتَصفْ لــي. يا مَشْـرَبي. ولتقلْ: هو الفجرُ بازغًا. هــو ذَا مَشْــرَبُ الألفاظ عند سُبَاتِهَـا. أجْهَشَتْ بالبَـوْحِ. كنجمٍ يتوارى. بين الكلمات يَـسْـتَـتـرُ. فَـيَلَذُّ لــيَ الحديثُ. من عَبَـث الــوَليـــد. ثـم أسَّـــاءَلُ: حَالـــي كحـــالـكَ. أنتَ لي. وأنَالَــكْ. الخَـــلْـــــقُ كَلمَـــــهْ. و الوجـــدُ كلمــهْ. و الــمـلــبَسُ والألــوانُ. وحركاتُ اليـد. كلمهْ. و اللفظـةُ المكتومـةُ. و التي تصل إلى الشفــاه ثم لا تُنطَـــقُ. وقـــولُنـــا: إني مُـــمسكٌ. كقـــولنـــا: لا أعرفُ. وإطـلالةُ الـوجهِ. وانسيـابُ اللّحظِ. كلمهْ. كـأنّما العينُ تَغْـمِزُ.

وهـي لا تَغـمزُ. و الأنـامل اليمـنى على أظـافر اليسرى. و السـاعةُ على الـمِعْصَم تُطِلُّ من تُـخُـومِ الثّوبِ. و العينُ تَسترقُ الـوقتَ. و الجيدُ إذ ينحني إلى الكَتف. وابتسـامةٌ يَقْطعهـا الخَـفقَانُ. ووَجنـةٌ يتوالَـى عليهـا شحـوبٌ واحمرارٌ. وعينٌ تَشْـرَقُ لَـتَكَادُ تَـنْدَمِعُ. و الجَفْـنُ مظَلَّـةٌ. وفَراديسُ النعيمِ. جادت بِخلٍّ يَقرأ الكفَّ. ويُصغي إلى النَّمْلِ: بكلِّ هذا السحرِ. أسَـرْتَـني. سَلَبْتَني. كفراشةٍ. إلى النـور. أنَّى صَـرَفْتَ السّيرَ. إلى كَبِـد السّماء. في الفضـاء الرَّحْبِ. قد غزوتَ الكـونَ. حَتَّى مَلكتَـهُ. تُـحرّرُ القَيـدَ. سُودًا وبيضًا. إلى السماءِ مَعْـرِجُنَا. إلى الشهـادة نَطلبُهَا. شهيقًـا زَافـرًا. سبيّـة الوجـدِ. في المعشـوقِ خـالصةٌ. ومع الحبيبِ خُلودُهَـا.

إفْصَاحٌ

كلما سمعت شعـرا أو مَشيتُ راجلاً، كلما أنشدت أغنيَّـةً أو أكلتُ خبـزا. كلما ارتديتُ ثـوبـا أو احتسيتُ شرابـا. كلما وضعت على ناظـري مـجْهَـرًا. رأيـتُ اللغةَ. حَضَـرَتْـنـِي اللغةُ. فاجأتْـنـِي. أفسدَتْ مشْيتي وغنائي. نَغَّصَتْ خُبْزِي وشرابي. أيقظَتْني بالكونِ بالنّاسِ بالغافلِين عنها بالهَاتكينَ أعْـرَاضَهَا.

رأيتُها مع نوح. رأيتُ مَـرْكَبَـهُ. تَصورّتُـهُ يَـخْـتًا ملكيًا. في المزاد العلنيّ. يُـباع ويُـشْـتَـرَى. بأغْـلىَ ثمنٍ. فاقتنـيْتـهُ. وَ رَصفْتُ على مدارجه، من قواميس الكلماتِ، من كل زوجين. حقيقةً ومجازًا. وفاضَ التنّور: اركبي معي أيتها اللّغة سأحميكِ . . .

يا كلَّ حـاضرِي أيَا قَـدَرِي . . . أشكـوكَ قسوةَ العَيِّ. فَمَنْ سـواكَ يَـبعثُ الدّفءَ في أوْصَـالي. في الرأس سـؤالٌ. تَتَشَظَّـى الذاكـرهْ. فمن يَـغسل عن قلبي التعبْ. أسْبح في بِرْكَـةِ الجسدْ. أرْسلُ إليكَ شُعْلَـةً من دَمِي. وشَهْـقَـةً نَسيتَـهَا ذاتَ مساء على صدري.

جـاءني بهاَ ودَعَاهَـا. فأتَـتْـنِي. مُـتَخَـفّيَـةً. تـريدُ فُجَـاءتي.

هاتَفَتْ. بيَد المرْنَاة. فَدَوت صورةٌ. تَنْحَرُ الشّريَانَ. كنتُ أرى الأيّامَ. أعُدُّهَا ليلاً بليلٍ. تَطوي نزيفَهُ فأبْتَسمُ. و اليومَ ها أنا أبتسمُ.

لا تُطِلْ بعد اليومِ قصائدكْ. فخيرُ السّحر نَفثةٌ. معقودةٌ. لا تَملكُ لها. ذاتُ الهَوَى. أنْ تتعوّذَا. رُشَّهَا رذاذًا. مُمطرًا. متهاطلا. واخْتمْ عليها بَصْمَةً. أمّيَّةً. هي لغة الهوى. عاريةَ الحروف. و الحركاتْ. و الكلماتْ. فَهَمْهِمْ بها. متلكّئًا. والْعَنْ دُعَاةَ الشعرِ. وبعضَ الفصحاءْ.

كُنْ كطيفكَ هاويًا. وكَظلّكَ. لا تَبتعدْ. لاَدغًا. هاجرًا. هبَات بلا نَدَمٍ. صَمتٌ خَشُوعٌ و الصَّدْرُ أوّاهُ. و الدمعُ من مُقلتي. في نشوة وَهَّاجَة. في غمرة الأشجان ودَّعتُها. لُغَتِي. وفي غفوة كَصَفير همس وكنور السَّمعِ أحتاجُها أدْعُو لها. كالعبد ينادي و ينادي: ألا أيها المولَى بربّ الشعرِ و للحبّ آلهةٌ هل من طيف يُجدّد لي عهدًا و عهدًا ويقول لي: ما نارُ لفظ يَتَجَارحُ يَتَقَاطَرُ. خذني إلى حضْنِ الكلماتِ. لادفءَ في غيرِه. ملءَ الجُفُونِ. وفي الأحلامِ. أحْيَا وَتَحْيَا. لنا الوفاءُ. لنا الدنيا. وكل السماءْ.

في الكونِ مسالكُ. لا يَلجُهَا إلا واحدٌ. إلا مرّةً. إلا ساعةً. ليس يدري متى هيَ تأتي. إنْ كانت ستأتي. فقد ينقضي العُمْرُ ولا تأتِي. و الحمدُ ألفٌ يومَ تأتِي.

بَثٌّ

اصْطفّتِ الجماهيرُ واستطالت الطوابيرُ. تزاحموا. ثم دخلوا. التفُّوا بالحَلَبَةِ أدوارًا. تقول: كعبةٌ. ضجيجُ. صراخٌ. أصواتٌ كالاستنفارِ. دقّت النواقيسُ. صَعَدَ المتبارزانِ. على الحَلَبَةِ: الحبُّ واللغةُ. تعاقَبَتِ الجولاتْ. قال: أثمرتُ عشقا. قالت: وضعتُ شعراً.

مَنْ زارعُ الورد. من صانع البهاءْ. مَنْ خالقُ الفتنْ؟
لولايَ ما كنتَ تحيا. ماكان شاعرْ.

لولايَ ما كان سحرٌ.

بعد نزول المطر. بذرٌ. نباتٌ. زروع. إثمارٌ ومَخَاصِبُ. حصادٌ ومَغَانِمُ. زال الجفاف واختفى الجَدْبُ وعاد المطر يساقي الأرض فترتوي.

لقد ألمّ الطائفُ وذهب بما ذهب حتى أضناني وأنهك قُوايَ وأنا الضعيفة في نفسي. أقول عِبَرًا. أسمع صوتكَ في السماء يوقظ أحلامي. ذاهلةً. صامتةً. حائرهْ.

حين تَسْكُبُ في مسمعِي كلماتِ الدّفء أسارع إلى المهد الوثير فأراكَ معي نركض على صفحات المطر فَيَنْبُتُ البحرُ أحباقًا فتبتسم المرآةُ ويضحك الكتاب ويتأوّه الوثيرُ.

ستتشكل كلماتي حين تمسح بيديكَ جبيني وتنثر نظراتِكَ على جسدي نَدًى وإلهامًا.

فَلَمْ يكن كتابٌ ككتابها. ولم يكن حبٌّ كحبّها. وشاع الخبرُ بين الأقوامْ. فصارتْ مَضرِبَ الأمثالْ فحسدها العقلاءْ وتمنوا هذيانَها. وكان أوّلَ الحاسدين كبيرُ العقلاءْ وقد أنكر نفسَهُ وعَقْلَ العقلاءْ.

اليوم آمنتُ أن الكلام يقتلني إذا ما اللفظُ قَلاَني. أوْ هَجَرْ. اليومَ أتلو على جميلٍ وعلى المجنون ولَيْلاَهُ و البُثَيْناتِ فاتحةً. وغدًا. باكرا. سأرحل إلى كلماتي. و سَأُركِنُ منها في زاويةٍ. وسأدعو شاهدا عَدْلاً. وسأتلو على الكرسيِّ خطابا:

الحبُّ أغنيَّةٌ. يجمعها قلبٌ تائهٌ. يضع لَحْنَهَا نبضٌ قاهرٌ. يؤدّي أنغامَها صوتٌ عاشق. يُروِّض تَخْتَهَا معلّمٌ ماهرٌ. ثم يُفشِي سرَّها لفظٌ ماكر.

عشقتُ الحسناءَ فوهبتُها كلماتي.
عشقتُ اللغةَ فوهبتُها حُبّي وهُيامي.
ضاعَ حبّي يوم ضاعت كلماتي.

رَنِينٌ

ذاتُ الأشعار تكلّمتْ فجرا وطلبتْ من جنود الليل أن يَسكتوا فأصغَى لها الجمع ثم انحنوا فقالت مخاطبةً أنيسها : ما الذي تريدُهُ منّي ، مالذي جئتَ تطلبُه . فالكونُ أرحبُ من فضائي . ويدُكَ الطُّولَى . والكلُّ حولك : يُحلّقونْ . ويتسابقونْ . ولك يُغنُّونْ . نشيدَ الحرب وأشعار الجنونْ . إلاّ أنا . وأنتَ على العرش كمالكِ الأرض و السماءْ . توزِّعُ صكوكَ الغفرانْ . وتُعطي الجوازاتْ . وتَخلع الثوب على من تشاءْ . ثم تُوقدُ النارْ . وتَقتطعُ الشعورْ . فَتَنْثُرُهَا سَعيرًا فالدنيا بَخُورْ . و العطرُ مخْدَارْ . ويحترق العود ويتفاوح المسكُ ويلتذّ الخليلْ . وعندها يهلّل الحفلُ من حولكَ وتتقاطع الأذرع على النُّحُورْ . فينحني الجيدُ وتصغي المَسَامع و القلبُ يَتَهَدَّجُ و الأنامل تَزْرُقُ . خوفٌ و حرقةٌ وانتظارْ . والكلُّ غائظٌ و الكلّ مَغيظٌ و الكلّ يَستبصرُ القضاءْ . صولةٌ منكَ يا عاصرَ القلوبْ . يانافثَ الأرواحْ . وتقف أنتَ سلطانًا عتيدًا . يصرّح بالأحكامْ . وتقف أنتَ جبّارًا زعوقًا . يَعْصف بالحسانْ . ويطولُ بين وقفتكَ و الكلامْ . سكوتٌ وسكوتْ . كأنها النَّبْلُ تصيب القلوبْ . وتقول كل لاهثةٍ . وتقول دون أن تقولْ . وأقولْ . ألاَ إنكَ الحكَمُ .

ليتك لا تـَعْـدُلُ. وكيف يَـعْـدُلُ الحَـكَـمُ. إني أنـا الأنثى التي لم تَـفُـزْ بالسّبق ولا حَطّمتْ رقما بالقياسْ. فكيف لي بـالفلاح أطْـلُـبُهُ. وكيف لي بتـاج العرش أحملُـهُ. كنْ ظالما وخـذني . كن ساحـرًا. كنْ سليمانْ . كن قـاهرا لمن سَـبَـقُوا. كن مُنصفا للتي تَلْعَـنُ العَـدْلَ وخذ بيـدي . كن جائرا. وكن لي فأنتَ أنتَ العادلُ.

لـو كنـتُ أعْـدُلُ مـا عَشقتُ . لـو كنتُ مُنْصِفًا مـا جلستُ على العرشِ. فأنا بِجَوْرِ الحُبّ أحتكمُ. وأنا من العدلِ أنتصفُ. فالعدلُ عدلي. وحكمُ السماءْ. ولا يعرف العشقَ إلاّ من ظَـلَـمْ . إني قـد حكَمْتُ عليك وحكمي نافذٌ. وحكمي قاطـعٌ. لا يُسْتأنـفُ. و الحاكمونَ و القُـضَـاةُ و الـمُرافعونَ في مملكـة العشقِ و الذين بقـانون السـماء يَنطقـونْ. إلـيكِ سيقـولونْ . إني قد حكمتُ وحكمي قـاطعٌ. لايُستـأنفُ. و الهائمـون في ربوع الوجـد وحُماةُ العرين. وأهل الرباطِ. وحـرّاسُ الثغورِ سيَتْـلُونَ ظَهيرَ الحكمِ وحيثيّـاتِ القَطْعِ. وسيقـولـونَ هذه استقالتُـنا من الشعـرِ. وهـذه إجـازتنا. من حقـوق الكلمات. فكـلامنـا اليـومَ كلامٌ جـديـدْ. ومُعْجَمُـنَا اليوم قاموسٌ جديدْ. سلطانُ الشوق كعشاق المرايا. وأصوات الـمُحبّينَ كرسـائل المراودينَ. من فاتنينَ. ومفتـونينَ. حولَـك قـامت ملامح الجريمــهْ. ومنك قد صَـدَرَتْ. فيالقُ التهمــة. وعليكَ حيثياتُ الإدانــهْ. عنـكِ قــد حُــرِّمَتْ ظـروفُ التخفيـفْ. إلى قضـاء الحبّ

فاسْتَسْلمي. عليكِ قد حكَمُوا . حبًّا مؤبَّدًا. فادخلي القلعةَ وجُرّي
أغلالَ قيدٍ يحوطُ بك. إلى الأذقانِ. وعلى المعَاصمِ. و الخِصرُ
مُسَلسلٌ . وقُيّدَتْ الخُطى. وتُحْسَبُ الأنفاسُ. أفلا تتبتّلينْ. أفلا
تتأوّهينْ. لا يَعْرِفُ الحبَّ إلا من ظُلِمْ. ولا يَدخلُ الجنّةَ إلا من بكَى

حَرْفٌ

الكلامُ اسم وفعلٌ وحرفٌ جاء لمعنًى وحرفٌ ليس كسائر الحروف وحرفٌ يُدركه الحسُّ وحرف لا تؤديه الصّفهْ. في الليلة البَدْراء تغيبُ الكلماتْ. أنا الحرف الذي فرّ من قيد الكَلِمْ. ريشة ذهبيّةٌ. تَرسم ألفاظي بألوان الشوق، على صفحات الألَمْ. تُقَيّدُ أنفاسي ثم تُطْلقُهَا. كما الآهات. في الهواء الطَّلْق. على سجلاّت الألقْ. نَادني أركَبْ إليكَ. ناديني. أيا حُسْني أيا مُنْيَتي. أشدوكَ أغْنيَّةً. أراقصُ إيقاعًا يَخْطَفُ الأبصارَ برقًا. فأنا الصوتُ إذا الصوتُ هَمَسْ. نادني وَاصْرُخْ. فزمانُ اللّفظ وَلَّى واحْتَجَبْ. لكَ الروحُ، لكَ الجسدُ العتيقُ. لك منّي ما يَنْبُضُ وما قد سكَتْ. هُزَّني بِصيَاحِ صَوْتِكَ. فأنا الفجرُ إذا الليلُ غَسَقْ. اسْكُبِ السَّيلَ على جَسَدي لِتَسْتَلَّ من غِمْديَ سيفَ الأرَقْ. وتَغْسلَ أوْتَاريَ العَطْشَى. وتُرْسلَني. طيرا يُحَلّقُ في الأفقْ. خُذْني أنا الطائرُ. خذني على الرّبوة الخضراء. ضُمَّني وَاصْرُرْ. لا تبتعدْ عنّي. وليكنْ لَيْلُكَ كَأسي. إني على سَفَرٍ. في ليلة الغَسَقْ. إنيّ إلى رحلةٍ من وراء الشّفقْ.

عندما عرفتُكَ كان مِنْ حولي فَراغْ . كالهُوَّة السَّحيق . أتجلَّى على حافة من بئرٍ . أمُدُّ يَدي . أنْسَاحُ إلى الأعماقْ . كأني إلى الخلودْ . بلا قرارْ . بلا زمنْ . بلا حدودْ . مَدَدْتُ يدي . أمسكتَني من ذراعي . تعلّقتُ بجسمكَ . أحببتُ نجدتَكْ . هممتُ بمَلْءِ الفراغْ . وحدثتُ نفسِي . بغير ما في نفسي . حتّى انطمَسَ الفراغْ . جاؤُوا إلى البئرِ السحيقْ . ردموها . فارتَدَمَتْ . على الأرضِ من جديد . وضعتُ أقدامي . صلبةً وجدتُّها . صخريّةً . شكرا لكَ أبا المكارم . شكرا . قد امتلأ الفراغْ . شكرا وحمدًا . يا مُوقِدَ الأنوارِ . يامطفىءَ الشموعْ . يامَالِىءَ الفراغْ .

ذاتَ سَفَرٍ طرقتُ بابَ الكبرياءْ . توسلتُ ذاتَ ألمٍ مناجيا : كيف الكبرياءْ ؟ من وراءِ الستارِ . ذاتَ بهجة . نَسيتُ الألمْ . قفلتُ راجعا . وفي يدي . باقةُ أزهارٍ . كأنها . أزهارُ عروسٍ . تخَضَّبتْ أشعارُها . ليلةَ عُرْسِهَا . بأوجاعِ البهجةِ . وَحنَّاءِ الألَمْ . فهل تتواصلُ الأرواحُ دونَ الأجسادِ بعد أن التحمتْ الأجسادْ؟ هو التألُّمُ أو إيذانٌ بالوداعْ . فَبكَى السائلُ .

كيف تستقرُّ النفوسُ على النفوسِ .
سُئِلَتْ الأفلاكُ فلم تُجبْ .
وسُئِلَ الإنسانُ فقال : إن سكَنَتْ .

ثم سُئِلَ أخْرَى فقال : إذا احتَدَمَتْ .

وَغَضِبَتْ من انتحالـه السَّماءْ .

فَسَألتْ الأفـلاكُ آدمَ فقالْ :

الساكنُ عبدٌ ، و المسكونُ عبدٌ ، و العَبدُ على العَبد .

وسَألتِ الأبـراجُ حـوَّاءَ فقـالتْ : إذا السـاكنُ مسكـونٌ فَـصَحْوٌ واسْتِسْقاءْ .

وإذا السّاكنُ سَاكِنٌ و المسكونُ مَسْكونٌ فموجٌ يَمُورْ .

فَـادْلهَمَّتْ السَّماءُ حَتَّى الـرَّميمِ وأطْبَـقَتِ الأفْلاكُ وَ أقْـفَلَتِ الأبراجُ واحتَمَى حُرَّاسُـهَا .

فقال الكاهنُ : إعصارٌ ناسفٌ .

وقال الراهبُ : عارضٌ مُمطرٌ .

وقال الساحرُ : غيثٌ نافعٌ .

وقال الساكن : رَجَّةُ الـزَّلازلَ .

وقال المسكونُ : بَـرْدٌ وَسَـلاَمْ .

سَمَاعٌ

حَدّثتْ ذاتُ الأشجان قالت : رأيتُ ليلةً في المنام أنيّ ـ ونساءً مثيلات ـ قد اجتمعنا حولَ آسر القلوب مُحَلّقَات ولم أكن قد انفردتُ به ، فتذاكَرْنَا المحبّةَ وأوردت كلٌّ واحدةٍ ما حفظتْه . قالت الأولى : حقيقة المحبّة قيامُكَ مع محبوبكَ بخلع أوصافكَ . وقالت الأخرى : أنْ تتكلمَ كلامَ عاشق فنيَ في عشقه وخرج عن أوصافه إلى المحبوب . وقالت الثالثةُ : ميلُكَ إلى الشيء بكلّيّتكَ ثم إيثارُكَ له على نفسك وروحك ومالكَ ثم موافَقَتُكَ له سرّاً وجهرا، ثم علمُك بتقصيرك في حُبّه .

ثم انبرتْ من الجمع واحدةٌ كنّا نظنُّها كالخرساء ـ وكان الآسرُ يَرْقُبُ ـ فقالت : ما يسيطر على الوجدان من آية الميثاق حتى يكونَ الوجودُ للمحبوب. عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه متّصل بذكر محبوبه ، قائمٌ بأداء حقوقه ، ناظرٌ إليه بقلبه ، أحْرَقَتْ قلبَه أنوارُ هويّته وصَفَا شُرْبُه من كأس وَجْده ، فإنْ تكلَّمَ فبالمحبوب ، وإن نطق فَعَن المحبوب ، وإن تحرّك فَبِأمْر المحبوب ، وإن سكن فَمَعَ المحبوب .

وهممتُ أن أتكلَّمَ وخَشيتُ ، وأنا بين خوف ورجاء هَتَف

الآســرُوقال وكأننـا لم نكن خَالـصَات : هــلاَّ كَــفَـفْــتُنَّ عن المحبّـة لا تَـسْمَـعهَا النّفوسُ فَـتَـدَّعيَـهَا . المحبة هِـبَـةٌ لا يكتسبها العبد بالمنازلة وما لا يخضع للكسب يُـخشَى من المذاكرة فيه حتّى لا تطلبه النفس أو تدّعيَهُ .

فأفقتُ وشفـتـاي تردّدان : قد قال كـلَّ شيء .

ويـروَى أنّ ذاتَ الأشجان قـد أخذهـا في غَسَقِ الليل أرَقٌ ذهب لها بنصفه وإذ هي بين فكرٍ ومَنامٍ تَـسَــلّل إليها بين الستائر طيفٌ قالت خِلتُه مَـوْلَـى السلامِ رسولَ الكلمات فـناجيتُـه .

يا شاعرا قـد تغنَّـى بشعره الشعراءُ. يا ساحرا . ياقـاتلي . يا مالكا . قد تَـسَـلَّـى بظلـّه الأمراءُ. ياصَـائغا بـاللفظِ أحلَـى الكلماتْ. يا نـاثرا عَــقدا فريـدا . يا نـاقشا . يـا ناحتـا . بين ألماسِ وجُـمانْ. سأرتـادُ لكْ. سأنسابُ لكْ. وأذيـعُ يوما على المآذن. وأشقُّ الصّفـوفَ . و القائمينَ . وأدعو الجمعَ ومَنْ مَعي. تُوبُـوا مَعي . هذا مَلاكُ الهائمينْ. وبَعدهـا يوما فيومًـا. ستأتـيـني . سيفُكَ الأرضُ . والخناجُـر تختفي. و الشعرُ منكَ. مدحـورٌ. وأنا التي . ستَشـدُّ على مَعَاصِمكَ الـوثَاقَ. وعنـدها سأهمسُ لكْ. يافارسي. يا آسـري . هذا جوادُكَ في يدي. حصنُ الوَغَى. ومَرْمَى النّزالْ. عليـكَ بي. عليكَ بمن قد أسَــرَكْ. فإن كنتَ يومـا طاعـنًا . وإن جاءكَ الظّمأ. أو شَدَّكَ الوَجدُ إلى القتـالْ. فهاذي أنا . فيها النزالْ. وفيها الـمُـقَامْ. الشعـرُ بيتي . و السّجـونُ قصـائدي. وأنتَ هنــا سجــينُ

الكلمـاتْ. فـداكَ الـرُّوحُ تَزْهَـقُـهَا. فجراً. وُصبحًا. ومساءْ. و الرّوحُ منسلخٌ. والبرازخُ تنتقِي. و الحصنُ منفتحٌ. يثـوبُ بحكمـه. ويطلبُ لـكْ. أن تُـعيدَ القتلَ دومًـا. يا قاتـلاً. يا زائرا. يـامقيما في أضْلُعِي. إنيّ فداكَ وقد حكَمتُ عليكَ. إني فداكَ و الحكمُ حكمٌ مُؤَبَّـدٌ: أنكَ القاتلُ يوما. أنك القاتل دوما. إني فـداكَ وعلى المـآذنِ صيحتِي: غفرتُ لَـكْ. غفرتُ لَـكْ.

فَـاصِلَـةٌ

قالت : أنا اللغةُ يتكلمونني ولا أ بُثُّ أحدًا شكَاتـي . أنا اللغةُ . أنا الأنثى . إنّى كَحَـوَّاءَ تَشتـدُّ وتُـمعن في الشدّة . تُـقاومُ نفسَها وتُبدي غيرَ ما تُـضمرُ . تقولُ عنها أبـيـّةٌ نَافـرٌ . تقولُ عنها فضيلةٌ خالصةٌ . يحادثها الشيطـانُ فـلا تَسْمَعُ . ويَتغـافل عنهـا الأمـلاكُ فتـدعـوهم فيـُخجلُهم دعاؤُهَا . حتى إذا ما هفا حسُّها ورَقَّ منها الشّجى وخَفَـقَ القلبُ نـابـضا مُـتَـدَفـقًا وَحَادَثَـتْـهَا النَّفْسُ على وَجَلٍ واشرأبَّ منها الجيدُ مُفَاتـنًا وطالَ انتظارُها فلم تَدْرِ أساعيـةٌ أم مطلوبـةٌ أراغـبَـةٌ أم مَـنْسيَّةٌ وجاءها اللّـحْظُ بهمسة ذَهَبَـتْ شدّتُـها كأنْ لم تكن وتسارعت منها الخُـطَى تُـسَابـقُ المناديَ ومـا هي إلا ومْضـةُ البرق إذ تَـتَـكَـشَّـفُ، تتهـاوَى، تُسْلمُ النَّفْسَ ومـا بـالنّفسِ ، تتعـرَّى ولا يُـخْجلُهَا العُـرْيُ. فما أسرعَ أن تَـتَعَـرَّى التي اشْتَـدَّتْ واستمسكَتْ . مـا أعْجَلَ أن تتكشّفَ ، تتهـاوَى. وإذا تجلىَّ المغمـورُ الـذي كـان على الأنثى فما أعْسَـرَ أن يـَحْـتَجبَ ومـا أبعـد أن يَـتـوارَى ، تَذهبُ الأزمان وتأتي الـدهور وتتكاثف جبـال الأغطية وفي لحظـةٍ ، في همسةٍ، بغمزةِ الطّرف ـ إذا شاءَ سيّدُها ـ تَسيلُ الجبالُ و الأقنعةُ

وشَامِخُ الرّواسي كأنها الثَّلجُ فَاجَـأهُ لَـهيبٌ شُوَاظٌ .

أيتها اللغة ، أسراري ومكامني ، ماذا فعلت بالذي قلتُ إليك ، هل تلوتهِ وهل رتّلت حـرفَهُ ترتيلا أم هل قلت : أصابَـه الشعرُ . ضُمّيـه إلى صدرِكِ ضَمَّـةً تُـذيب مـدَادَهُ فيتسلّـلُ إلى القلب الرفيـق بين أحناء الدّفء الوديع مُطـلاً على الجَمْرِ تَـفْـنَى الأكوانُ ولا تَـخْبُو نيرانُـه .

أيتهـا الكلماتُ : مَتىَ تـوكّلـتِ على الحيّ الـذي لا يمـوتُ وسمّيتِ باسم ربّ العزة و الملكوتِ وطويتِ المكتوبَ ودعوتِ بالقهرِ والجبروت؟

إن للكلام جَـلالا وعليه مهـابةً كعظمـة السلطان يَـرْكَبُ الراحلـةَ يَـخترق الـمفازاتِ ويَـجـنُّ عليه الليلُ فلا يتزوَّدُ ولا ينـام حتى يكون له صـوت بـه بُحَّـةٌ تعتـريها حَـشْـرَجَةٌ فَـيَتَـأبّـى ثم يتـألّه ثـمّ تـرتـجف شفتَـاهُ مـردّدا :

المدادُ عَصِـيٌّ و اليراعُ على الإبـاء وينبلج من ثغرهـا النورُ وتسأل مَنْ أتـاهـا : كيـف أنتَ قبل أن تـراني . فيقـولُ : كما كنت أكـونْ ، أسعـارٌ ومُهـورْ ، أبتـاعُ من الـهوَى وأبيـعْ ، صفَقَاتٌ بـلا خُسرانْ ، وكلٌّ بـائعٌ ويشتري ، وربّـاتُ الخدورْ . ومن الكلام مـا سَحَـرْ ، ومن السحر ألـوانٌ تَصْدُقُ وألـوانٌ تُـدَاري ، ويجلو الشعرُ أستـارَ النفوسْ ، حدّثيني يـا ابنةَ النّور عن سـرّ البلاءْ ، واكتُمي السّـرَّ عن مـاضٍ تَـولّـى ، واصْـدَحي بما هو آتْ . قالتْ : أأنساكَ يوما فلن أراكْ . قالْ : هكذا قالت حوّاءْ ، وهكذا

روى الرّواةُ عنها ، كلّ البنـاتِ كأمّهنْ ، إلا التي بأنيسِ الروح قد آمنتْ .
قالتْ : بل سأتلو صفائحَ الذكرى وأقولْ: دَعْ مَنْ تَـلاَ وهاتِ ما هو آتْ ،
وسيَـقْـدِمُ الضيفُ وتُرْصَدُ الآهــاتْ . قـال : فَلِـمَ اللفـظ علـى اللسـانِ
و الصدر قـد ضاق بها لا يطـاقْ. قالتْ : أحبّـكَ حُبَّيْـــنْ ، حبَّ الهوى
وحبّا على قَـدَرِي، لعبتُ له ولا أرتوي وقلتُ : سحابٌ عـابرٌ وغيثٌ لا
يـَنــي . فـامتـدتْ السماءُ وتَـقاطَـرَ الصَّحْـوُ و انفجـر الغمامْ. قـالْ :
وشأنُـكِ مع الذين عـرفوكِ. قالت : كنتُ أصادفُ الـرجالَ ولا رجالْ،
أتَـمَـلَّـى ويتسـاردونْ ، أحبُّ ألاّ يأتـيَ الرجلُ فيأتونْ، وكنتُ في نفسي
أتلهَّى وأقـولُ للـواحـد منهم : سأنسـاكَ مـا ذَكَـرْتَـني ، وسألقـاكَ مـا
نسيتَني، أفَـلاَ تَـفْعَلُ. قالْ : كذا كُــنَّ مَعِي ، تشتدُّ الأبيـّةالنَّـفُورُ يوما
ثم إذا هي عِـهْــنٌ مَـنْفُوشٌ، يطيبُ فيه المقامُ و الـوزنُ خفيفٌ ، فَتَـزَّاورُ
النفسُ عنهـا ، ويطـول الجهد يُـدَافعهـا ، ويشتـدُّ العَـنَاءْ. و الـــمَـــَللْ.
وروائح الجسدْ. حتـى لَـقـيتُك . قـالت :لقيتَ الشعـرَ ومُستلينَ الكلامْ.
قال : وَفعلُ الفاعل يَـحفِرُ الأجـرام َخُـدُودًا فتسيلُ النفس سَـيَلاَنَ الهَوَى
كأنها الغيثُ الرَّذَاذْ. قالت : أفلا تخشى الفراقْ . قال: يوم لا تتلهفينْ ولا
تتـوجّعينْ ويـوم تخبـو في ديوانـــك نيرانُ كسرى . قـالتْ : قلبٌ وَجِلٌ
ومَعَاصِـرُ من دمي .قالْ : هو العشقُ وهو الرَّدَى .قالتْ : فأنـا الفانيـهْ.
قالْ : حملتُ لَـكِ حِـمْلاً وشَقَّـقْتُ عليكِ ثم رفعتُ الـمرَافِعَ وسافرتُ.

لَــوْحٌ

أيهّا المتكلّمونْ. أيها السـامعونْ. يـا سُعَاةَ البريـدْ. الكلماتُ لعبتي. وغوايتي. أعابثُ بها الأنثى. وأقـول لها إني مُعابثٌ. فَـتَـقبل عبثي. ثم تُـدْمنُ عبثي. وَ لاَ أنْــفَـكُّ أقـول لها إني أرتّبُ الكلماتْ. وأسـوّي مَفَـاتنَ اللفظْ. ولاشيءَ من وراء اللفظْ. ولا تفتأ تُــمْعنُ في قَبول اللفظْ. وحبّ اللفظْ. حتى تَـنْسَى صـاحـب اللفظْ. وإذا أنـا بـالكلماتْ. آتي إلى ذات الجمالْ. وأقــولْ. وقعـتُ في شراك لفظي. فصـــدّقـتُ نفسي. فلست بعابث. فتـُقسِمُ هي أنيّ عابثٌ. وإذا اللغة بصاحبها. وإذا اللفظ بقائله. واصفٌ وموصوفْ. كفاتـنٍ ومفتـونْ.

أقولُ مسائلا. هل أنا آثمٌ. فتقـولُ. لا. وجلال اللفظ. أقول. لا أعرف الهوى. تقول. لذيذٌ كلامُكَ. جميلٌ خداعُكَ. فاتنٌ يُـغـري.

وتمضي الأيّامُ. وأطلبُ إجازتي. وأمْسكُ. فتبـدأ الرحلةُ الأخرى. مَقاماتٌ. شَدْوٌ رخيمٌ. أستنفـرُ ثُــمَـالَـةً من كأس العزّة. فلا أفلحُ في دحـر الكلماتْ. أصيبُ مَــقاتلَ الإباء. فتترامى. أسخـو بفُتَـات اللفظ. مهترئا لَـوْثَـتْـهُ الشّـفَاهُ. متراخيًا بَـلَّلَـهُ الرّضابُ. وأمضـي.

ويوما . مَلَلْتُ الكلماتْ . فقصدتُ طبيبَ الذاكرَهْ . وطلبتُ الدواءَ للذاكرَهْ . فأعطاني وصفةً : فتّاكةً . وصفةً لمحو الذاكرَهْ . ارْتحتُ من الذاكرَهْ . غيرَ شيءٍ واحدٍ . ظلَّ في الذاكرَهْ . أنَّ طَبيبي قد عَرَفَ يومًا . بعد مُصَابِه في حُبّه . كيف تُمْحَى الذّاكرَهْ . ولم يَنْسَ . منذُ ذاكَ اليومِ . مَوْتَ الذّاكرَهْ .

أخذتُ قاموسي . وكلَّ معاجمي . وسافرتُ بها بعد العلاج . مستجمًّا . في غيابِ الذاكرَهْ . ويومًا . و الشتاءُ بثلجِه . في أوجِ عزّتِه . ونحن في غرفة . على الهضاب شاهقة . من جبال الأرض . وفي تلال السماءْ . ونوافذُ البلّور تَحْجُبُنَا . ودفءُ البيت نَصْنَعُهُ . بالثَّلجِ نَهْزَأ . بالأمطارِ . بالسُّحُبِ . نَرْنُو إلى الكونِ . نرنو إلى كَبِدِ السّماءْ . ونقول . في صمتٍ . لا شيءَ بعد اليومِ يَفْصلنا . إني . ولغتي . في المَنْأى . القَصِيِّ . ولا عُتِيّ من الأنواءِ يَقترِبُ .

أيتها الكلماتْ .

ليس فضيحةَ حُبّي . ليسَ فضيحةَ عشقي و شَبَقي . حين أخلو . حين أرْكَنُ . حينَ أغدو . وحين أروحْ . على لساني . وبين الشفاهْ . أنتِ وَحْدَكِ فضيحتي .

ردّت فقالت :

لا تُفْشِ سِرّي . سِرَّ حبّي . سرَّ لَهَفي . لا تمشِ على حافتي . لا

تَبُحْ بِمكَامنِي . بِجَسَدِي . أنتَ جِسْرِي ومَسَالكي .

لن أقولَ شيئا . لن أبوحَ . فلستُ بخائنٍ . هل تَأْذَنينَ بهمسةٍ . أيا لغتي . الصَّيفَ ضَيَّعْت الجَسَدْ . الصّيفَ ضيّعت الجُسُورْ .

لو جئتُك كاملاً . ما أحْبَبْتِني . تَمّمي التّمثالَ . ثم قولي . صَنيعتي . أنا الفنّانة . أتيتُ إلى اللوحة المُثْلَى . فَعَبَدْتُّهَا . ولمّا استقامتْ . بعد لأيٍ وشدّةٍ . وحسبتُ أنّي الصّانعَهْ . وظننتُ أنيّ المالكَهْ . استوى الماءُ و التمثالَ وريشتي . ووجدتُّني . أسيرةَ فنّي . وإلهامي . بلغتُ به النُّهَى . بالشعرِ . روّضتُهُ . فيا عَجَبًا . كيف استقام اللفظُ . بِيَدِ النَّحّات . كَمَعَاولِ النَّقْشِ . كَمبْضَعِ الجَرَّاحِ . وإذا أنا . في الفنّ هائمةٌ . أحببتُ فنّي . فَعَبَدتُّهُ . نَذرتُ له عُمْرِي . وأحللتُ له زمني . فلا فَقَدتُّكَ يازمني . ولا حُرِمْتُكَ أيَا فنّي و يا أمَلِي .

صَـــدًى

أيها الشّعــرُ. أيتهـا الحروفُ . أيــا كلماتي . سيأتيكُنَّ يـومًــا . من يُـنَـظـّفُ القصيدَهْ. من يَصْقُلُ الْـبَـرْدِيَّ. من يطهّرِ سَنَـمَ الأقصاب. فقـد ضاع مني قلمي الذّهَبِـيُّ. ضاع منّي. أضعتُـه. أتلفتُ نُـسْـغَـهُ. لَوَّثْتُ مـدَادَهُ. فعدتُ إلى اللّوحِ . يـوم كنتُ كالأطفال. أخُطُّ وأمْـحُو. ويَـدي مُلَطَّخَـةٌ . بـالكِلْسِ بالطّينِ بـالأغبـارِ. ومؤدّبي كـالعرّاف يقـول مستبشرًا. ستَنجح يا ولدِي. سَتَـنْجَحُ يا ولدي.

رُحماكَ يـا أبتي. عَلّـمْتَـني. وظننتَ أنّـي نـاجِحٌ. فأغـدقتَ بـالإكرامِ. وجـودُكَ لا ينتهي . وأعطيْتَ مـؤدّبي. كلَّ السّخـاء. وجئتَ للعَرّافِ. هـازئا ومصدّقا. وعانقـتَ قولاً قد بَـدَا. كالنُّـبُوّةِ صـالحًا. أنَّ ابنَـكَ ناجِـحٌ. فحمدًا . لربِّ العالمينَ. أنـّك غائبٌ.

كنتُ كالطائرِ. يلازم الأقفـاصَ. حتى أحَـبَّهَا. ويـوما. خـرجتُ محلّقًا. وهجرتُ المساجنَ. وودّعتُ مساكني. وقلتُ. بلا عودةٍ. فالأفقُ رحبٌ. وطلقٌ. ومشـاعـري في عُــرسهـا. زاهيـةٌ. بيضـاءُ. بأجنحـةٍ خفّاقـة. وركبتُ البحرَ. بحرَ الكـلامِ. وأمسكتُ كالملاّح رايـةَ مقودي.

وأطلقتُ إنذارا. كأصوات المَدافع حَلَّ أمامَها. ضيفٌ أميرٌ. تُدوّي لَهُ. بالأفراحِ صارخةً. ومن لُجَّةِ الأبحار. تَسَلَّلَ مَرْكَبي. على جَنَبَاتِ الشعر. وحذوَ صخوره. هَبَّتْ رياحٌ. واستشاط الموجُ. فالشّراع ممزَّقٌ. والعوامد فُرِطَتْ. و الرّواسي تَزَلْزَلُ. على الضّفاف. تكسَّرَ زورقي. سأرثيكَ يازورقي. سأذْكُرُ ما حَييتُ سعادةً. قلتُ يوما للوَرَى. خذوا الدنيا. وهاتوا زورقي.

سأرثيكَ يا أبتي. سأرثي مؤدّبي. سأرثيك يا نفسُ. بلوعة. حَرَّى. أنّي لم أصُنْ. شراعا سابحًا. رحماكَ يا أبتي. فطفلكَ راسبٌ. في البحر. وفي امتحان اللفظ. طفلكَ راسبٌ. قد حاولَ مرةً. ألاّ يكونَ مكابرًا. تآنَسَ باللّفظ. وقال لعلّني. أكونُ ملاّحًا على مياه النّهر. قبلَ المُحيط. محبًّا لا يَني. فأحمالُ أرضي. أناخت أظْهُري. رحماكَ يا أبتي. فطفلُكَ راسبٌ.

قد كساني اللفظُ يوما. لوحةً. فنّيّةً. من غابرِ الأحلام. جاءت رسومُها. بعطور صوت فاتن. فسوّيتُها. ونقشتُ لها الألواحَ. من أنْدلُس. ووَشحتُ لها الأليافَ. وأعْلَنْتُها. أسطورةً ذهبيّةً. وإذ أنا ساجدٌ. لها أنحني. نَزَّ منّي قلمي. فَسَرَى منه المدادُ. فَلَطَّخَ ثَوْبَها. وراح الفَنُّ. إلى الإلاه. منّي يشتكي. ثم أرسل لأبي. رسالةً مطويّةً. قد خَطَّ فيها: إنَّ ابْنَكَ راسبٌ.

أنـا الحرف الطليقُ. أنـا القصيـدة الحرَّى. أنـا اللفظ و السحـرُ. في موكب الشّعرِ. تألَّـقَ مَولِـدي. ثم ضاعت مُهجتي. فَتَـاهَ نجمي.

تأوّهَ الشعـرُ يومـا . واشتكى. متـوجّعا بحنينـه. يَذرف الـدمعَ. وللقصيد أنينُـهُ. كمهاجـرٍ. وكما الغريبِ. فـالأشجانُ داعيـةٌ. و النفس تهفو إلى الأوطانِ . أوّاهُ ياقَــدَري. إني أنا الشّعرُ الذي. قـد صارمتيَّمًـا. قـد بات معــذَّبًـا . بـلا إلفٍ ولا أملٍ. من ذا الذي بعـد اليوم يقـولني . رحماك يـا قائلــي. فأنـا اليتيمُ. منـذ تـركتَني. وأنـا الكسيرُ. يـوم ضـاع القَـلَمُ.

رَجْـعٌ

جرّبتُ دَهْـرًا في السّباحة حُظْوَتِــي . ونزلتُ قاعَ البحرِ . كمحترفٍ للصّيـدِ . كما الغـوّاصِ . يكـاشف الـمُرجان وهـو أليفُـهُ . يـداعب الأصـدافَ وهي خصيمـةٌ . ضغطـتٌ على الأنفـاسِ . ولُـذْتُ بـالأعماق مناديـا . من بحرٍ إلى نَـهَرٍ . في لُـجَجِ الألفـاظ . وهي عنيدةٌ . وصحتُ في داخلي . هذا هـو النهرُ المحيطُ . وفيما أنا بين يأسٍ ويَـقْظَة . إذا بالفَيضِ . فيض السَّماءْ . يجودُ ويسخـو . تهاطلت الأصـدافُ . وجـاءت محارةٌ . من باطن الألفـاظ . كلؤلـؤة الياقـوتِ . لونُـها لا يـوصَفُ . ألماسةٌ في الماء . كخـاتَمِ الشّمسِ . من سـالف الأعماقِ . يَـبْـزُغُ . نـورُهـا . كـالكـوكب السّيّار . يعرفها الغوّاصُ . فينسَى ألَـمًـا . وتنطلق الأنفاسُ . وهو بمائه . وفاز بـالسّبق . فاز الذي قـد طوى عُمُـرًا . كاليائسِ . صـامتا لا يكشف . وقال . هذا هو الوجد . هذا هو اللفظُ . فلن أنساك يا قلمي . وخَطّ لفظا . وصـاغ حرفـا . وراح يَـنْظم المنثـورَ . ومن أعماق بحرٍ خـالد . يَستخـرج الأوزانَ . وأصبحَ صـائغـا . يسـوّي القلائدَ . ليَـزينَ بها . جيـدًا بحسنـه ظالـمًـا . مَفـاتنُهُ الوَجَـنَاتُ . إذا رَمَتْ باللّحظ . أصـابت قيْصَـرًا . ولمّا

استوَى الماءُ. وجاء مَـحَارُهُ. قال قائلهم. درسُ السّباحة. أبدا لا ينتهي. عليكَ بالغوصِ. ألْـفًا وألفًـا. فلسـتَ بماهرٍ. ولستَ بصائغٍ. لا يَـهْـزِمُ المرءَ إلاّ لسانُـهُ. ونـادى المنادي. أيا أيّها الطفل. في الدهـر. وفي النهر. ومن جديد. إنك راسبُ.

رحماك يـا أبتي. أوصيتَني. وأُنْـسيتُ وصيّتكْ. فقد قلـتَ يومـا. الحبُّ كالشعرِ. و الشعر من فتنةِ الألفاظ. و الكلماتَ. إذا تعرّى سرُّها. زجاجةٌ تنكسرُ. فالآنَ عرفتُهـا. والآنَ فاتَ أوانُـها. فَسَأُفْشـي سـرَّهَا. وأقولُـــها. لكلِ ّطفلٍ بـاسمٍ. لكلِ ّفتـــًى نــاظمٍ. لكلِ ّكهلٍ ناثـــرٍ. سأقولُـها. وأقولُ بعدَها. رحماك يا أبتي. إنَّ ابنك راسبٌ.

وفي ليلـةٍ. من ليالي القَــدَرِ. قد دعـا لي ملَــكٌ بدعـوةِ الخيرِ. أنّى جئْتَهَا. فـاستجابَ الْـقَـدَرُ. فألفَ حمدٍ يـومها. بَـلَغْتُ ذُرَى المجـدِ قولاً وفتنةً. وأقسمتُ للشعـرِ. لن أنساك يا قَسَمِي. وجئتُ القصيدةَ. سـاعيا ومدبـرًا. وكـان لي في الإيقاعِ مَـوجـدةٌ. واجتَـزتُ في ليلٍ. وبي أملٌ. اختبـارَ الوزنِ. وتـلافيفَ الـمُنَى. وأذَاعَ الشعـرُ عنّي سـرَّهُ. قـد خيَّبَ الظَّنَّ. فليس بناجحٍ. فيا أيها الشعر الرحيمُ. مغفرةً. وسماحةً. فاقبَلْ من فـتًى تـائـه. بَـوْحًا جديدًا. يقول. ويَـهمسُ. سامحوني. فلستُ بشاعرٍ. ثم هَاكُمْ قولـــةً. سرًّا دفينًا. طالما يتكـرّر. سأظلُّ ما حييتُ على الـوفاءْ. للصّـورة المثلى. لألف ذكر. سأظلُّ بعـد اليومِ. كَعَبْـدٍ. عاشقٍ للضّـادِ.

معشوقُهُ الحرفُ. وهو طائعُهُ.

وأقبلتُ على الدرس منتبهًا. طالبًا حذقَ السّباحة. مجتهدًا. ومعاودًا. وبي في الفَلاَحِ أُمْنِيَّةٌ. أنْ أبْعَثَ. إلى عالم الأرواحِ. برقيَّةً. أقول فيها. رحماكَ يا أبتي. فطفلكَ ناجحٌ. ونزلتُ قاعَ النهرِ مجدَّدًا. أفتّشُ في المحارِ. كاشفًا سرَّ اللآلي. فإذا أنا. كَسَعيدِ الحظ أُمسكها. جوهرةً. ألْمَاسَةً. نُورِيَّةً. أداعبُ الأصدافَ من حولها. وأومِئُ لها باللّحظ. كفارسٍ في الغوصِ ليس يهابُه. إذا بزلزالٍ. يَهُدُّ الكونَ. كونَ لآلِئي. فَقُنْبُلَةٌ قد انفجرتْ. من بقايا الحرب. مزّقَتْ أوصالَ طفلٍ حالمٍ. بَدَّدَتْ أشلاءَهُ. وفرقَعَتْ في الشعرِ شَظِيَّةً. فَتاهَ الوزنُ. وضاع القلمُ.

هل تُبعَثُ الأرواح بعدَ ضَيَاعِهَا. هل تُولَدُ الألفاظُ بعد مَمَاتِهَا. هل تَحْملُ الأرحامُ بعد سُباتها. كيف السّبيل إلى عَصًا سحريَّة. تحوّلُ الألفاظَ زَهْرًا. تغيّرُ الألحانَ منْ شُؤْمٍ ومن نَحَسٍ. فيأتي طالعُ اليُمْنِ. وتأتي البركاتُ. والعَرّافُ. والتّلاواتُ. وعطرُ المكرُماتِ. وتهاليلُ الليلِ. وتسابيحُ الضُّحَى. وآيَةُ الكُرسيِّ. وسِدرةُ المنتهى. و الحزبُ اللّطيفُ. والأختامُ أدعيَةٌ. والنَّفّاثاتُ في العُقَد. راحَتْ تَضيعُ. وزال الإفكُ. وانبلجَتْ. أشعّةُ النّورِ. وعندصياحِ الديك. عند السَّحَرْ. صاح مؤذّنِي. هذا هو الفجرُ. وبعدَ الفجرِ. صبحٌ جديدْ.

نَسْخٌ

قلتُ مُفَاتِحًا. هل تأذنينَ لي. أيا لغتي . أن آخُذَ منك إجازةً . وأن أبْحِرَ في محيط الـوراثـة . حيث الهندسـةُ الجديدَهْ. حتى أتقنَ حديثَ الاستنساخِ . أنتقي منك الحَيَاملَ . والجنَات . وأثَبّتُ الخلايا في أنابيب المَخَابِر فسيأتي عليك يومُ النّسيانْ. يومُ افْتِقاد الذاكرهْ. وعندها سأبعثُ الـمَلاقحَ . من سُباتها. وَسَأنْفُخُ فيها حرارةً. بعد الجماد. وسأستنسخُ من كلماتك الكلماتْ. وسأوَلّدُ من صُورَكِ الصُّوَرْ. فاني أخافُ عليك. بتُّ أنا أخافُ عليكِ. من نفسكِ. أنا أخاف عليكِ. على نفسكِ أنا وأنتِ نخاف عليك .

قالت .

هناكَ من بعيدْ. على فراش الذّكرياتْ. بين فُحوصٍ وكُشوفْ. واستوى البقاءْ. ومقاديرُ الرحيلْ. مسكتُ بنفسي. فوجدتُّ العزمَ حَديدًا. فتحتُ نواظري. وحَدّقتَ في الوجود فرأيتُ مسافات تقارَبَتْ. فاختزلْتُهَا. واعتصرتُ رحيقَها. جمرةٌ بين نارين. يومَ نطقتُ. يوم أحببتُ لغتي. يوم خِلْتُ أن الحبَّ قد وُئِدَ. ليلةً . بُعثَ

الوليدُ جـديـدا .

أجَبْتُ . ثم طَلبتُ قلما . وصحيفةً . ولم يمنعوني . فانثال لفظٌ . دَمًـا قَرَاحًا . كأنه الأسى . تتقاطر مقلتِي . بدأتُ . وماكنت أعلمُ أين سأنتهي .

طلبتُ الرحيلَ .

فحضرتِــنِـي .

طلبتُ الشهادةَ .

فحضرتِـنِي .

سألتُ نفسي . اليومَ أحببتُ الحياةَ . أحببتُ سوالفَ الأزمان .

همستُ بَـاسـمًـا .

يَا لُغَـتِي . يا آسـِرَهْ . مُستبـدٌ طيفُكِ . في الرّكنِ . في البيتِ . طيفُكِ . على الورق وبين السطورِ وفي المحافظ . طيفُكِ . في السوقِ . وعلى المآذنِ . في الربَّـى . وعلى الشوطىء . يلاحقني . طيفُكِ . أمْسكيهِ وروّضي عنادَهُ . فــالطّيفُ طيفُكِ . إذا غضبتُ . فهــو يبتسـمُ . طيفُكِ . وإذا انشرحتُ . تقطّبَتْ أهـدابُـهُ . طيفُكِ . أمسكيـه سـاعـةً . أو بعضَ وقتٍ . إني أسـوّي أغـنـيـَّـةً . وأهديكِ لحنًـا . شاديًا . كلماتُـهُ . الطّيفُ طيفُكِ .

قالت .

هل جلستَ يومـا على الضّفاف بعدَ الغُـروبِ و الأضواءُ تتسلّلُ بين حُجُبِ الظـلامِ تخترقِ الضَّـبَابَ لتستقرَّعلى صفـائح الماء وهي هـادئةٌ لا

يـداعبُهـا إلا هفيفُ النسيمِ تـرتعش لـه ارتعـاشـةَ قلـبِ الحبيب ينـادي بخَـفَـقَانـه أناملَ الطّيف القَصـيِّ أنِ ارْسُـمْ بريشةِ الفنّ لوحـةَ الغَزَل على صدري فيهـا الـمَراكبُ تختـالُ على الماء راقصـةً بشِـرَاعهَا الأبيضِ الفتّان كـأنـه ينادي شاهقات الـمَبَانِـي :

بوركتِ يا لُـغَـتِي.

هَاءُ السَّكْت

هَـلْ أتَـاكَ حديثُ الـمَـرْأة
تُـقَـدّمُ الجَسَدَ قُربانًا إلى الحبّ
يَـْصطَـلـي بـنَـارِ النَّـدَمِ.

أيتها اللّغةُ. تَـمَنَّعي. أهلاً بك. تمرَّدي. اغْرِفـي من بحور الزَّهْو. أهلاً بك. امْكُري. أمْعنـي كَيْدًا. غيظيني وراوغي. اطْعَني الظهرَ بـنبَال الشّعْـرِ. فسهامُ اللفظ حميمَـةٌ. وتفنَّـني. اعزفي على نبض القلـوب. ثم كُوني. فـاتنةً. خـائنةً. فأهـلاً بك. شيئًا واحـدًا. لا تفعليه. فَللـدَّلاَلَة حُـرمـةٌ. وللمـدارك سلطـةٌ. للعقل كما للحبّ. جـلالٌ وَمَهـابـةٌ. لا تتناقضي. لا تتردّدي. لا تجُاملي من صانعوك. قد شَوَّهُوك. حينَ صرْت كَدُمْيَـة. تُسَوَّى بك الصَّفَقَاتُ. كإحـدَى اللَّهَجَات. تَدحرجْت من سَماء النُّبْل. حيـثُ وَضعتُك. تَـمَرَّغْت في الأوحـــــال في الطّين المُبَلَّل. فَتَـدَنَّسَتْ. أزهارُ تَاجـك. لاَ تَـتَـنَاقَضِي. قَسَماً بك. يومَ كنت فَصيحَةً. ناصعةَ البياضِ. محجوبـَةً. قَسَمًـا بـالشّعْرِ. بآيات النُّهَى. بالكلمات. لو

جئت القَطيعَـةَ مَـا نَقمْتُ عليك. خيـانـةُ المعنَى كَهجْـرَان حُبّ. قـدرةٌ وشجاعةٌ. وتَنـاقُضُ الأهواء مَذَلّةٌ ومَهانَـةٌ. لا تتنـاقضي. برَبّ الشّعر. لا تتملّقي. أسماءُ الأضـداد لَعينَـةٌ. و السُّهَى. حَقْلٌ مِـنَ الألْغـامِ. لا تتفككي. لا تتمزَّقي. فلا أهْلاً قَـدمْت. لا تتناقضي. ولا سهلا حَلَلْت. لا تَـتَوَرَّطي. جَسَدُك المسكينُ. بينَ يـومٍ و ليلـة. وهبتـةفي الدُّجَـى. هديَّـةً مفضوحـةً. للَّيْـلِ السّعيـد. وعنـدَ الضُّحَى. وَهَبْت الخليلَ فُتَاتَـهُ. منهوكَ القُوَى. فَاترَ الأشلاء. قد خبَتْ أوْهَاجُهُ. قَدَّمْتـه. كَبْشَ الْـفدَاء. لـوَجْـد وَاهـمٍ. كَـقصيدة الزَّيف. في بَـدْء اللّقَاءْ. كَمَـادحِ السّلطان. يُمَجّدُ الفُصْحَـى. عَـلَـى مِـنْبَـرِالأشعار. وهو مُـرَاوِغٌ. دَيْدَنُـهُ التَّـلْهيجُ. بـلا خَجَـلٍ. يُسكّـنُ الحَركات. صَفيقَ الحَيَـاءْ. كَـغَضْبَـة الأقدار. على فَـلْـذَة الأكباد.

أيتها اللّغـةُ.

أيتها الفُصْحَـى.

لاَ تَـنْسَـيْ وَصيَّتـي.

تَـجُوعُ الحُـرَّةُ ولا تأكُـلُ بثَـدْيَـيْهَـا.

تَـفْنَى الأبـيَّـةُ وَلاَ تُضَحّـي بِـحُبّـهَا.

قَافيــةٌ

هَـا أنّـي
وفي البَـدء ما رُمْـتُ إلا ترويضَ لسانـي
قد رَوّضتُ قلبـي وجنـانـي
ها أنـا محـبّ عـاشـقٌ
ها أنا مفتـونٌ بضَـادي ولسـاني
إنيّ أشهـد أنّي الأسيـرُ
وآسـري كلماتـي
بحبّ
قـد دَخلتُ إليـكِ
وبشـرف
أُوَدّعُـكَ
فلَـن أعُــودَ
أيتها القـافيـةُ، أيتها القصيدةُ، قَـسَمًـا بالشّـعـرِ :
لأنْت
طَـالِـقٌ
طَـالِـقٌ
طَـالِـقٌ.

للمؤلف

الأسلوبية و الأسلوب :

ـ الدار العربية للكتاب ، تونس ط 1 : 1977، ط 2 : 1982 ، ط 3 : 1988

ـ دار الصباح ، القاهرة ـ الكويت ، ط 4 : 1993

التفكير اللساني في الحضارة العربية :

ـ الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط 1 : 1981 ، ط 2 : 1986

قراءات مع الشابي و المتنبي والجاحظ وابن خلدون

ـ الشركة التونسية للتوزيع ، ط 1 : 1981، ط 2 : 1984 ، ط 3 : 1989

ـ دار الصباح ، القاهرة ـ الكويت ، ط 4 : 1993 .

النقد و الحداثة :

ـ دار الطليعة ، بيروت ، ط 1 : 1983

ـ دار أمية ، تونس ، ط 2 : 1989

قاموس اللسانيات (عربي فرنسي ـ فرنسي عربي) مع مقدمة في علم المصطلح

ـ الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1984

اللسانيات من خلال النصوص

ـ الدار التونسية للنشر ، ط 1 : 1984 ، ط 2 : 1986

الشرط في القرآن على نهج اللسانيات الوصفية

ـ الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1985

(بمعية د . محمد الهادي الطرابلسي)

اللسانيات وأسسها المعرفية

ـ الدار التونسية للنشر ، 1986

النظرية اللسانية والشعرية في التراث العربي من خلال النصوص

ـ الدار التونسية للنشر ، 1988

(بمعية د. عبد القادر المهيري ود. حمادي صمود)

مراجع اللسانيات

ـ الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1989

مراجع النقد الحديث

ـ الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1989

قضية البنيوية : دراسة ونماذج

ـ ط 1 : دار أمية ، تونس ، 1991

ـ ط 2 : دار الجنوب ، تونس ، 1995

قضايا في العلم اللغوي

ـ الدار التونسية للنشر ، 1994

مساءلات في الأدب واللغة

ـ مؤسسة اليمامة ، الرياض ، 1994

المصطلح النقدي

ـ مؤسسات بنعبد الله ، تونس ، 1994

في آليات النقد الأدبي

ـ دار الجنوب ، تونس ، 1994

أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث

ـ مؤسسات بنعبد الله ، تونس ، 1996

مباحث تأسيسية في اللسانيات

ـ مؤسسات بنعبد الله ، تونس ، 1997

تمّ طبع هذا الكتاب
بمطبعة كوتيب تونس الشرقية
مارس ١٩٩٨